مجموعة قصصية

Nouvelles

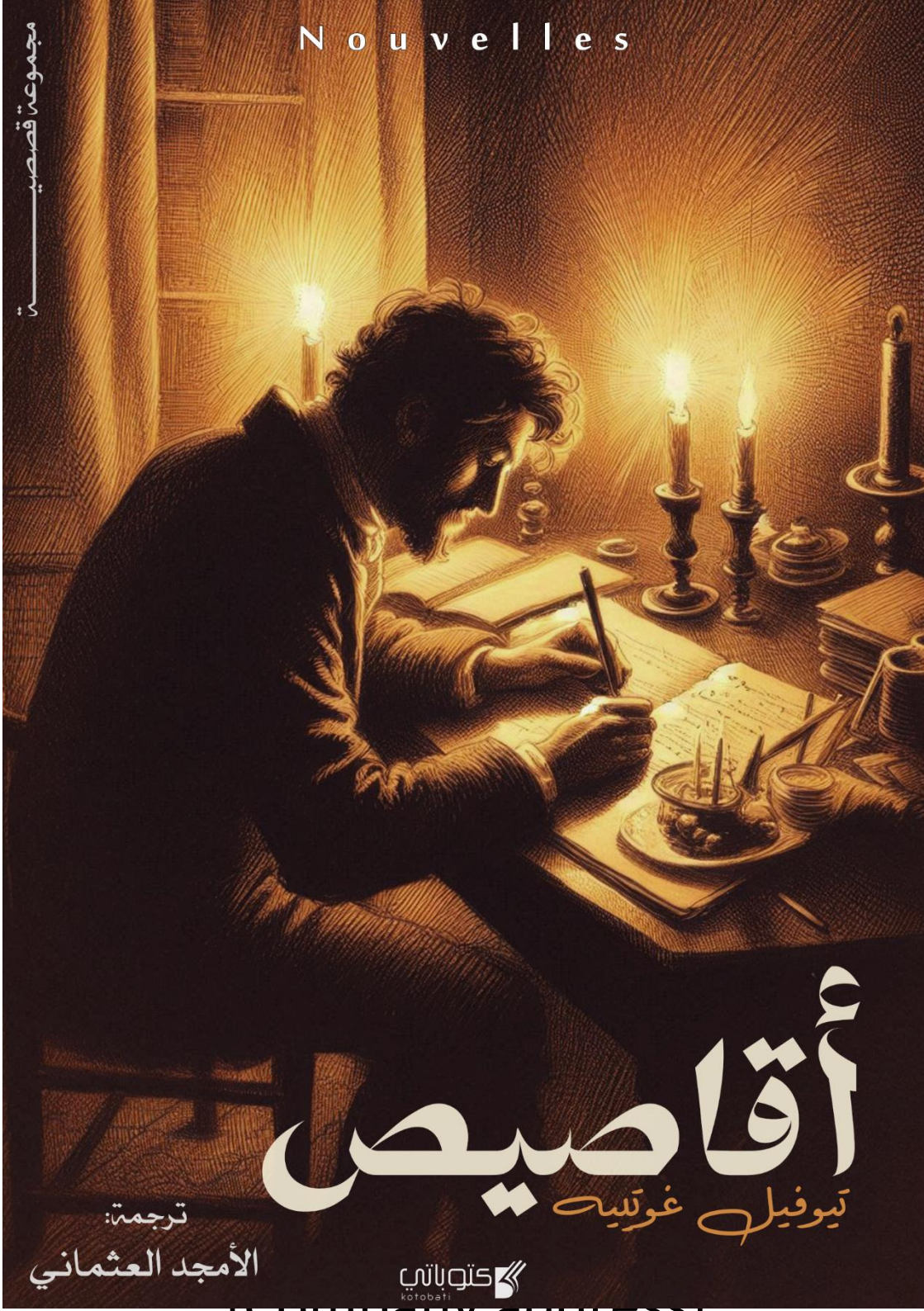

أقاصيص

تيوفيل غوتييه

ترجمة:
الأمجد العثماني

كتوباتي
kotobati

أقاصيص

Nouvelles

تيوفيل غوتييه

Théophile Gautier

ترجمة:

الأمجد العثماني

الكتـــــــــــاب: أقاصيص Nouvelles

تـــــــــــأليف: تيوفيل غوتييه (1811-1872)

ترجمـــــــــــة: الأمجد العثماني

النوعيـــــــــــة: مجموعة قصصية

صدر عن كتوباتي: 2024م

التنسيق والتصميم: مكتبة كتوباتي

النشر الإلكتروني: مكتبة كتوباتي

support@kotobati.com

www.kotobati.com

كل الأفكار المذكورة في الكتاب لا تعبر عن مكتبة كتوباتي.

وكل الحقوق محفوظة لدى المترجم.

القصص

إبريق القهوة حكاية رائعة..... 4
أومفال أو نسيج الحب تاريخ الروكوكو..... 19
الميّتة العاشقة..... 35
السلسلة الذهبية أو الحبيب المشترك 85
روح المنزل..... 118
زيارة ليلية 157
كلب الماركيز الصغير..... 165
ملحق 208
عن البدانة في الأدب 208

إبريق القهوة

حكاية رائعة

رأيت تحت الحجب المظلمة

أحد عشر نجمًا

والقمر والشمس أيضًا

ينحنيان لي في صمت،

طوال نومي

رؤيا يوسف

توضيح المترجم

قول يوسف لأبيه:" إني رأيت في المنام أحد عشر كوكبًا، والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين." (سورة يوسف ـ قرآن كريم)

1

دعيت في العام الماضي مع اثنين من زملائي في الورشة هما أريجو كوهيتش وبيدرينو بورنيولي لقضاء بضعة أيام في أرض في عمق النورماندي، وكان الطقس الذي وعدنا بأن يكون رائعاً عند مغادرتنا قد تغير فجأة، وهطلت أمطار غزيرة حتى أن الطرق الغارقة التي كنا نسير فيها كانت أشبه بمجرى سيل.

وكنا غارقين حتى الركبتين في الوحل، وكانت طبقة سميكة من التراب الدهني قد التصقت بنعال أحذيتنا، وأبطأت خطواتنا بثقلها إلى درجة أننا لم نصل إلى وجهتنا إلا بعد ساعة من الغروب. وكنا منهكين؛ لذلك فإن مضيفنا لما رأى ما كنا نبذله من جهد لكظم تثاؤبنا و إبقاء أعيننا مفتوحة، ما إن تناولنا العشاء حتى أمرنا أن يأخذ كل منا إلى غرفته.

وكانت غرفتي واسعة؛ وعندما دخلتها شعرت برعشة من الحمى، إذ بدا لي أنني أدخل عالماً جديداً، بل إن المرء ليظن أننا في عصر الوصاية على العرش، إذ رأى قمم الأبواب التي رسمها بوشير والتي تصور الفصول الأربعة، والأثاث مثقل بزخارف الروكايل من أسوأ ما يكون، وزخارف النوافذ منقوشة

نقشاً شديداً. ولم يكن هناك شيء قد عطل. وبدا المرحاض المغطى بعلب المشط ونفثات البودرة كما لو كان قد استُخدم في اليوم السابق. وكان هناك فستانان أو ثلاثة أثواب متغيرة الألوان، ومروحة مغطاة بالترتر الفضي تتناثر على الأرضية الخشبية المشمعة جيداً، ولدهشتي الكبيرة كانت علبة سعوط صدفية مفتوحة على رف الموقد مليئة بالتبغ الذي لا يزال طازجاً. لم ألاحظ هذه الأشياء إلا بعد أن وضع الخادم شمعدانه على الطاولة الجانبية للسرير وتمنى لي نوماً هنيئاً، وأعترف أنني بدأت أرتجف كورقة الشجر. وسرعان ما خلعت ملابسي واستلقيت، ولكي أضع حداً لهذه المخاوف السخيفة، سرعان ما أغمضت عيني واستدرت لأواجه الحائط، ولكن كان من المستحيل أن أبقى في هذه الوضعية: فقد اهتز السرير تحتي كالموج، وانسحبت جفوني بعنف. واضطررت إلى الاستدارة والرؤية: كانت النار المشتعلة تلقي بانعكاسات حمراء على الشقة، بحيث كان من السهل أن أتبين بسهولة الأشكال في النسيج والصور الدخانية المعلقة على الحائط.

كانوا أسلاف مضيفنا، فرساناً في دروع من حديد، وقواداً في دروع من حديد، ونواباً في شعر مستعار، وسيدات جميلات بوجوه ملونة وشعر أبيض مسحوق، يحملن في أيديهن وردة.

وفجأة اكتسبت النار درجة غريبة من النشاط؛ وأضاء الغرفة وهج شاحب أضاء الغرفة، ورأيت بوضوح أن ما كنت أحسبه رسوماً باطلة كان حقيقة؛ لأن عيون هذه الكائنات المؤطرة كانت تتحرك وتبرق بطريقة عجيبة، وكانت شفاهها تنفتح وتنطبق كشفاه الناس الذين يتكلمون، ولكني لم أسمع شيئاً سوى دقات الساعة وصفير نسيم الخريف.

استولى عليَّ رعب لا يمكن التغلب عليه، وقف شعري منتصباً، واصطكت أسناني حتى تكسرت، وغمر جسدي كله عرق بارد. دقت الساعة الحادية عشرة. ودوّى اهتزاز الضربة الأخيرة لوقت طويل، وعندما انطفأت تماماً... آه، لا، لا أجرؤ على البوح بما حدث، فلن يصدقني أحد، وسيحسبني الناس مجنوناً. أضاءت الشموع نفسها؛ وبدأ المنفاخ، دون أن يحركه أي كائن مرئي، ينفخ النار وهو يئن مثل شيخ عجوز مصاب بالربو، بينما كانت الملاقط تتدافع في حطب النار والمجرفة ترفع الرماد.

ثم قفزت دلة القهوة من على المنضدة التي كانت موضوعة عليها، واندفعت نحو الموقد حيث وضعت بين الجمر، وبعد لحظات قليلة بدأت الكراسي تهتز وتهتز أقدامها الملتوية بطريقة مدهشة حتى اصطفت حول الموقد.

2

لم أكن أعرف ماذا أفهم مما كنت أراه؛ ولكن ما كنت أراه بعد كان أكثر غرابة، فقد كانت إحدى الصور، وهي أقدمها جميعاً، صورة رجل سمين ممتلئ الجسم بلحية رمادية تشبه إلى حد كبير الفكرة التي كانت تراودني عن السير جون فالستاف العجوز، وقد تجهم وهو يطل برأسه من الإطار، وبعد جهد جهيد، وبعد أن دفع كتفيه وبطنه المنتفخ بين الممرات الضيقة للإطار، قفز بثقله إلى الأرض.

ولم يكد يلتقط أنفاسه حتى استخرج مفتاحاً صغيراً بشكل ملحوظ من الجيب العاشر من قميصه المزدوج، ونفخ فيه ليتأكد من نظافة الحفر، ثم وضعه على جميع الإطارات واحداً تلو الآخر.

واتسعت جميع الإطارات لتسمح بمرور الأشكال التي بداخلها بسهولة.

رؤساء أديرة صغار ممتلئون، وأساقفة جافون، وقضاة ذوو مظهر وقور في أردية سوداء كبيرة، وضباط صغار في جوارب حريرية وسراويل من الصفر، وسيوفهم مصوبة إلى أعلى، كل هذه الشخصيات كانت تمثل مشهداً غريباً لدرجة أنني لم أستطع أن أمنع نفسي من الضحك رغم رعبي. جلست هذه

الشخصيات الجديرة بالجلوس؛ وكان إبريق القهوة يرتد بخفة على الطاولة. ثم تناولوا القهوة في فناجين يابانية بيضاء وزرقاء اللون، جاءت تلقائياً من فوق الطاولة، ومع كل واحد منهم قطعة من السكر وملعقة فضية صغيرة. وعندما تناولوا القهوة، اختفت الفناجين و إبريق القهوة والملاعق دفعة واحدة، وبدأ الحديث، وهو بالتأكيد أكثر الأحاديث التي سمعتها غرابة في حياتي، لأن أياً من هؤلاء المتكلمين الغريبين لم ينظر إلى الآخر أثناء حديثهم: كانت عيونهم جميعاً مثبتة على الساعة.

ولم أستطع أنا نفسي أن أصرف نظري عنها وأن أمنع نفسي من متابعة العقارب التي كانت تتحرك نحو منتصف الليل بخطوات غير محسوسة، وأخيراً دق منتصف الليل؛ وسمع صوت كان جرسه جرس الساعة بالضبط يقول: - ها قد حانت الساعة، حان وقت الرقص، فقام الجمع كله. وتحركت الكراسي إلى الوراء من تلقاء نفسها؛ ثم أخذ كل فارس بيد سيدة، وقال نفس الصوت:- هلموا إبدأوا ! أيها السادة أعضاء الفرقة الموسيقية، نسيت أن أقول إن موضوع اللوحة كان كونشيرتو إيطالي من جهة، ومن جهة أخرى كان هناك مشهد صيد الأيل ينفخ فيه عدة من الخدم في أبواقهم. فأحنى العازفون الذين لم يبدوا حتى ذلك الحين أي بادرة من أي نوع من الإشارات رؤوسهم

موافقين. ورفع المايسترو عصاه، وانفجر من طرفي القاعة تناغم راقص مفعم بالحيوية. في البداية رقصوا المينويت، ولكن النغمات السريعة للنوتة الموسيقية التي عزفها العازفون لم تتماشى مع هذه الرقصات الجادة: لذلك بعد بضع دقائق، بدأ كل زوج من الراقصين والراقصات في الدوران مثل الغزل الألماني. وأصدرت فساتين النساء الحريرية، وقد تكومت في هذه الزوبعة الراقصة، أصواتاً من نوع غريب؛ فقد كانت تبدو كأجنحة سرب من الحمام. كانت أقواس العازفات تمر بسرعة كبيرة فوق الأوتار حتى أنها كانت تصدر شرارات كهربائية. وكانت أصابع عازفي الناي ترتفع وتنخفض كما لو كانت مصنوعة من الفضة السريعة؛ وكانت خدود العازفين منتفخة كالبالونات، وكل هذا كان يشكل طوفاناً من النغمات والترتيلات السريعة جداً ومن السلالم الصاعدة والهابطة الملتوية، التي لا يمكن تصورها لدرجة أن الشياطين أنفسهم لم يكن بإمكانهم مجاراتها لمدة دقيقتين. وكان من المثير للشفقة أيضاً أن نرى كل الجهود التي بذلها هؤلاء الراقصون للحاق بالإيقاع. لقد قفزوا وتقافزوا وقاموا برقصات مستديرة الأرجل و"جيتيس باتوس" و"إنتريشات" بارتفاع ثلاثة أقدام، حتى كان العرق المتصبب من جباههم

على عيونهم يغسل الذباب والاحمرار. ولكن مهما فعلوا، كانت الأوركسترا تسبقهم دائمًا بثلاث أو أربع نغمات.

دقّت الساعة الواحدة؛ فتوقفت .

ورأيت شيئاً غاب عني: امرأة لم تكن ترقص، كانت تجلس على كرسي بجوار المدفأة، ولم تكن تبدو لي على الأقل مشاركة فيما يجري حولها.

لم يسبق لي أن رأيت شيئاً بهذا الكمال، ولا حتى في المنام: بشرة بيضاء مبهرة، وشعر أشقر رمادي اللون، ورموش طويلة، وعينان زرقاوان صافيتان شفافتان لدرجة أنني كنت أرى روحها من خلالهما بوضوح كحصاة في جدول ماء. وشعرت أنني لو أحببت أحداً في حياتي فستكون هي. وهرعت من الفراش، من حيث لم أكن قادراً على الحركة حتى ذلك الحين، واتجهت نحوها مدفوعاً بشيء كان يتصرف في نفسي دون أن أدرك ذلك؛ ووجدت نفسي على ركبتيها و إحدى يديها في يدي أتحدث إليها كما لو كنت أعرفها منذ عشرين عاماً.

ولكن، وبمعجزة غريبة، بينما كنت أتحدث إليها كنت أتمايل برأسي على أنغام الموسيقى التي لم تتوقف عن العزف؛ وعلى الرغم من أنني كنت في أوج سعادتي لوجودي مع هذه الجميلة كانت قدماي تحترقان بالرغبة في

الرقص معها، ومع ذلك لم أجرؤ على أن أعرض عليها ذلك، فقد كانت هي التي كانت تتمنى أن أرقص معها. ويبدو أنها فهمت ما كنت أريد، لأنها قالت لي وهي ترفع يدها التي لم أكن ممسكا بها نحو وجه الساعة: (عندما تكون اليد هناك سنرى يا عزيزي ثيودور) لا أدري كيف حدث ذلك، ولكني لم أستغرب على الإطلاق أن أسمع نفسي وهي تناديني باسمي بهذه الطريقة، وواصلنا الحديث. وأخيراً، وفي الساعة الخامسة عشرة، اهتز الصوت ذو اللسان الفضي في الغرفة وقال :

-أنجيلا، يمكنك أن ترقصي مع السيد إذا شئت، ولكنك تعرفين ما ستكون النتيجة.

-فأجابت أنجيلا في عبوس، ووضعت ذراعها العاجية حول عنقي - وصاح الصوت: (بريستيسيمو!) وبدأنا نرقص الفالس. وكان صدر الفتاة يلامس صدري، وخدها المخملي يلامس وجنتيّ، وأنفاسها الحلوة تطفو على فمي، ولم يسبق لي في حياتي أن شعرت بمثل هذه العاطفة؛ فقد ارتعشت أعصابي كالزنبركات الفولاذية، وتدفق دمي في شراييني كسيل من الحمم البركانية، وكنت أسمع دقات قلبي كالساعة المعلقة في أذني. ومع ذلك لم يكن هناك شيء مؤلم في هذه الحالة. كنت مغموراً ببهجة لا توصف، وكنت دائماً أريد

أن أبقى هكذا، ومن اللافت للنظر أنه على الرغم من أن سرعة الأوركسترا كانت قد تضاعفت ثلاث مرات، لم نكن بحاجة إلى بذل أي جهد لمجاراتها، وكان الجمهور مندهشاً من خفة حركتنا فصرخوا وصفقوا بأيديهم بأقصى ما يستطيعون، ولكنهم لم يصدروا صوتاً.

بدت أنجيلا التي كانت حتى ذلك الحين ترقص الفالس بطاقة ودقة مدهشة، وكانت تتثاقل على كتفي كما لو كانت قد خذلتها ساقاها، وقدماها الصغيرتان اللتان كانتا قبل دقيقة واحدة تلامسان الأرض لم تنفصلا إلا ببطء كما لو كانتا مثقلتين بكتلة من الرصاص

- قلت لها يا أنجيلا أنت متعبة: (دعينا نستريح) فأجابتني وهي تمسح جبينها بمنديلها: (لا مانع لدي.)

-ولكن بينما كنا نرقص الفالس جلسوا جميعاً، ولم يبق إلا كرسي واحد ونحن اثنان. سآخذك في حضني.

3

ودون أن تبدي أدنى اعتراض، جلست أنجيلا ولفّت ذراعيها حولي كوشاح أبيض، وخبأت رأسها في صدري لتدفئ نفسها قليلاً، لأنها كانت قد أصبحت باردة كالرخام. ولا أدري كم من الوقت بقينا في هذا الوضع، لأن كل حواسي كانت مستغرقة في تأمل هذا المخلوق الغامض العجيب.

ولم يعد لدي أي فكرة عن الزمان أو المكان؛ ولم يعد العالم الحقيقي موجوداً بالنسبة لي، وانقطعت كل الروابط التي كانت تربطني به؛ وتحررت روحي من سجنها الطيني وسبحت في المبهم واللامتناهي؛ وفهمت ما لا يستطيع إنسان أن يفهمه، فقد كانت أفكار أنجيلا تكشف لي عن نفسها دون أن تحتاج هي إلى الكلام؛ لأن روحها كانت تسطع في جسدها الثمانية عشر مثل مصباح المرمر، وكانت الأشعة المنبعثة من صدرها تخترق صدري.

وغردت القنبرة فبدا لي بريق شاحب يلعب على الستائر، وما إن رأته أنجيلا حتى نهضت مسرعة ولوحت لي مودعة وبعد خطوات قليلة أطلقت صرخة وسقطت من عليائها فأسرعتُ من شدة الرعب لأحملها ...

فتجمد دمي بمجرد التفكير في الأمر: لم أجد سوى إبريق القهوة محطمًا إلى ألف قطعة. عند هذا المنظر، اقتنعت بأنني كنت ضحية وهم شيطاني، استولى عليَّ خوف شديد لدرجة أنني فقدت الوعي.

4

عندما استعدت وعيي كنت في الفراش، وكان أريجو كوهيتش وبيدرينو بورجنيولي واقفين إلى جانب سريري. وما أن فتحت عيني حتى صاح أريجو قائلاً: (آه، يا للعار، لقد كنت أدهن صدغيك بعطر الكولونيا منذ ساعة تقريباً. ماذا فعلت الليلة الماضية؟ لقد رأيتك هذا الصباح لم تنزل إلى الطابق السفلي فدخلت إلى غرفتك فوجدتك ممدداً على الأرض في بدلتك الفرنسية، ممسكاً بقطعة من الخزف الصيني المكسور كما لو كانت فتاة جميلة. قال الرجل الآخر وهو يرفع أحد الجوارب الحريرية الوردية المخططة بخطوط خضراء: (يا إلهي! هذه بدلة زفاف جدي) ها هي الأزرار المرصعة بأحجار الراين والمزخرفة التي كان يفخر بها .

لا بد أن ثيودور قد وجدها في مكان ما ووضعها من أجل المتعة. وأضاف بورجنيولي: "لكن لماذا شعرت بالسوء الشديد؟ إن هذا جيد لعشيقة صغيرة ذات أكتاف بيضاء، فأنت تفك عقدها وتخلع قلائدها ووشاحها وهي فرصة عظيمة لإثارة الضجة. إنه مجرد ضعف أصابني؛ فأنا عرضة لذلك" فأجبته بفظاظة: "لقد نهضت وخلعت ثيابي السخيفة ثم تناولنا الغداء.

وكان رفاقي الثلاثة يأكلون كثيراً ويشربون أكثر من ذلك؛ أما أنا فقلما أكلت على الإطلاق، فقد كانت ذكرى ما حدث

تسبب لي تشويشاً غريباً. ولما انتهى الغداء، وكان المطر ينهمر بغزارة، لم يكن هناك سبيل للخروج، وشغل الجميع أنفسهم قدر استطاعتهم. كان بورجنيولي يقرع الطبول على النوافذ، وكان أريغو والمضيف يلعبان لعبة الداما، وأخذت أنا مربعاً من الرق من ألبومي وبدأت أرسم.

قال المضيف، الذي كان قد انتهى من لعبته وكان ينظر من فوق كتفي إلى عملي بعد أن انتهى من لعبته.

صرخْتُ بنبرة صوت مرتجفة، كما لو كانت حياتي تعتمد على إجابته: "بحق كل القديسين في السماء، هل هي ميتة أم حية؟

-لقد ماتت منذ عامين بسبب التهاب في الصدر بعد كرة." أجبته بألم: "يا للأسف!" وكتمت دمعة كادت أن تسقط، وأعدت الورقة إلى الألبوم. لقد أدركت للتو أنه لم يبق لي سعادة على الأرض!

أومفال

أو نسيج الحب

تاريخ الروكوكو

كان عمي، الشوفالييه دي ***، يعيش في منزل صغير يطل على شارع دي تورنيلي الحزين من جهة وشارع سان أنطوان الحزين من جهة أخرى. بين الجادة والجزء الرئيسي من المنزل، كانت هناك بضعة أشجار قرنية قديمة، تلتهمها الحشرات والطحالب، تمد أذرعها الهزيلة في شفقة في قاع ما يشبه البالوعة المحاطة بجدران سوداء عالية. وكانت بعض الزهور المسكينة التي أكلتها الحشرات والطحالب تحني رأسها في ضعف مثل عذارى الكستناء، تنتظر شعاعاً من أشعة الشمس لتجفيف أوراقها نصف المتعفنة. كانت الأعشاب قد نبتت في الممرات التي كان من الصعب التعرف عليها، حيث مر وقت طويل منذ أن كانت هناك أشجار الكراك. كانت هناك سمكة أو سمكتان ذهبيتان تطفوان بدلاً من أن تسبحا في بركة مغطاة بالطحالب ونباتات المستنقعات. كان عمي يسمي هذه حديقته. في حديقة عمي، بالإضافة إلى كل الأشياء الجميلة التي وصفناها للتو، كان لديه جناح كئيب إلى حد ما، والذي أطلق عليه اسم "دو ليكس" على سبيل المجاز بلا شك. كان في حالة سيئة للغاية. كانت الجدران متهالكة؛ وكانت بقع كبيرة من

الجص قد تفككت وتساقطت على الأرض بين نبات القراص والشوفان البري؛ وكان العفن يخضر الأرضيات السفلية؛ وكان خشب المصاريع والأبواب قد تلاعب به ولم يعد يغلق أو يغلق بشكل سيئ للغاية .

أما المدخل الرئيسي فكان مزيناً بنوع من إناء نار كبير به نفايات مشعة، لأنه في أيام لويس الخامس عشر، عندما بنيت "لي ديليس" كان هناك دائماً مدخلان من باب الاحتياط. كانت الشيكوريات واللفائف تملأ الكورنيش الذي كان قد تفكك بالكامل بسبب تسرب مياه الأمطار. وباختصار، كان "ديليس دي مون أونكل لو شوفالييه دي***" مصنعاً يرثى له إلى حد ما.

كان هذا الخراب المسكين الذي كان بالأمس متهدمًا كما لو كان عمره ألف سنة، خرابًا من الجص لا من الحجر، متجعدًا كله، متشققًا كله، مغطى بالجذام، قد أكله الطحلب والملح، كان له هواء أحد أولئك الشيوخ البائسين الذين أنهكهم الفسق القذر ولم يكن يبعث على الاحترام، إذ لا يوجد في العالم شيء أقبح وأتعس من ثوب شاش قديم وجدار جص قديم، وهما شيئان لا ينبغي أن يدوما ولا يدومان.

وفي هذا الجناح أسكنني عمي، ولم يكن الداخل أقل روكوكو من الخارج، و إن كان أفضل حفظاً من الخارج. كان السرير مصنوعًا من اللمبات الصفراء مع زهور بيضاء كبيرة .

وكانت هناك ساعة روكايل على قاعدة مطعمة بالصدف والعاج. وكان هناك إكليل من ورود البومبون يدور بغنج حول مرآة البندقية؛ وفوق الأبواب، كانت الفصول الأربعة مرسومة بلون واحد. وكانت سيدة جميلة، متبرجة إلى أقصى درجة، ترتدي مشداً أزرق سماوي اللون وسلم من الشرائط الزرقاء السماوية، وفي يدها اليمنى قوساً وفي اليسرى حجلة، وعلى جبهتها هلال، وعند قدميها كلب صيد سلوقي، تتكئ وتبتسم بأبهى حلة في إطار بيضاوي كبير. كانت إحدى عشيقات عمي السابقات، والتي كان قد رسمها على هيئة ديانا .

وكما ترون، لم تكن المفروشات حديثة للغاية. لم يكن هناك ما يمنعنا من الاعتقاد بأننا كنا في فترة الوصاية على العرش، كما أن النسيج الأسطوري الذي كان معلقاً على الجدران أكمل الوهم تماماً.

صوّر النسيج هرقل وهو يدور عند قدمي أومفيل. كان الرسم معذباً على طريقة فان لوو وبأكثر أسلوب بومبادور يمكن تخيله .

وكان هرقل يحمل موزعاً محاطاً بفضيلة وردية اللون؛ وكان يرفع إصبعه الصغير برشاقة خاصة جداً كأنه ماركيز يأخذ جرعة من التبغ، ويدير بين إبهامه وسبابته شعلة بيضاء ملتهبة من الخيط؛ وكانت رقبته المتوترة محملة بأقواس من الشرائط والورد وخيوط اللؤلؤ وألف زينة أنثوية؛ وكانت تنورته العريضة ذات الحلق الحمامي مع سلتين هائلتين تكملان مظهر البطل الذي يقهر الوحوش.

وكانت أكتاف أومفال البيضاء نصف مغطاة بجلد أسد نيميا؛ وكانت يدها الضعيفة تستند إلى هراوة حبيبها؛ وكان شعرها الأشقر الرمادي الجميل الذي تكسوه عين من البودرة ينسدل بلا مبالاة على عنقها، وهو مرن متموج كعنق الحمامة، قدميها الصغيرتين، قدميها الإسبانيتين أو الصينيتين الحقيقيتين، اللتين كانتا تتناسبان بشكل مريح مع خف سندريلا الزجاجي، كانتا مزينتين بحذاء نصف عتيق من اللون الأرجواني الناعم مع سلسلة من اللؤلؤ. كانت فاتنة حقاً! كان رأسها منحنياً إلى الوراء في جاذبية ساحرة، وفمها مزمومًا ومقطبًا بشكل لذيذ، ومنخراها منتفخان قليلاً، وخدّاها مضاءان قليلاً، وكان هناك شارب وضع بمهارة ليزيد من إشراقها بطريقة رائعة؛ ولم يكن ينقصها سوى شارب صغير لتجعل منها فارسًا بارعًا.

وكان هناك العديد من الشخصيات الأخرى في النسيج، وهي التالية الإجبارية في الصف، وهي حب الصرامة؛ ولكنها لم تترك في ذاكرتي صورة واضحة حتى أستطيع وصفها .

في تلك الأيام كنت صغيراً جداً، وهذا لا يعني أنني كبير جداً اليوم؛ ولكني كنت قد تركت المدرسة الثانوية لتوي، وبقيت مع عمي حتى اخترت مهنة. ولو كان الرجل الطيب قد تنبأ بأنني سأتخذ مهنة القصصي الرائع، فلا شك أنه كان سيطردني ويحرمني من الميراث إلى غير رجعة؛ لأنه كان يعلن أشد الازدراء للأدب عامة وللأدباء خاصة. لقد كان رجلاً نبيلاً حقاً، وكان يريد من قومه أن يشنق أو يضرب بالعصي كل أولئك الأوغاد الصغار الذين يتدخلون في تسويد الورق ويتكلمون في أهل الفضل كلاماً لا يبعث على الاحترام . رحم الله عمي المسكين، ولكن الشيء الوحيد الذي كان يقدّره في الدنيا هو الرسالة إلى زيتولبيه، وكنت قد تركت المدرسة لتوي. كنت مليئاً بالأحلام والأوهام؛ وكنت ساذجاً مثل، وربما أكثر من، روزيير دي سالينسي. كنت سعيداً لأنني لم أكن مضطراً للقيام بالمزيد من الواجبات المنزلية، وكنت أعتقد أن كل شيء كان للأفضل في أفضل العوالم الممكنة. لقد آمنت بعدد لا حصر له من الأشياء؛ آمنت بالراعية التي كانت ترعى الغنم البيضاء

المسحوقة؛ ولم أشك لحظة في قطيع مدام دي فلوريان. لقد ظننت أن هناك بالفعل تسعة من الملهمات، كما أكد الأب جوفينسي في ملحق دي دييس وهيروبوس .

لقد خلقت لي ذكرياتي عن بيركوين وجيسنر عالماً صغيراً كان كل شيء فيه ورديًا، أزرق سماوي وأخضر تفاحي. أيتها البراءة المقدسة، البساطة المقدسة، كما يقول مفيستوفيليس.

عندما وجدت نفسي في هذه الغرفة الجميلة، غرفتي الخاصة، غرفتي وحدي، شعرت بسعادة لا مثيل لها. لقد جردت كل قطعة أثاث بعناية؛ وتطفلت على كل ركن من أركانها واستكشفتها في كل اتجاه... كنت في الجنة الرابعة، سعيدًا كملك أو ملكين. بعد العشاء (لأننا كنا نتناول العشاء عند عمي)، وهي عادة ساحرة ضاعت مع عادات أخرى كثيرة لا تقل سحرًا عن تلك التي آسف عليها من كل قلبي، أخذت شمعداني وانسحبت، فقد كنت متلهفًا جدًا للاستمتاع بمنزلي الجديد.

وبينما كنت أخلع ملابسي، بدا لي أن عيني أومفال قد ارتعشتا؛ نظرت عن كثب، ليس بدون شعور طفيف بالخوف، لأن الغرفة كانت كبيرة، والوهج الخافت حول الشمعة لم يزد الظلمة إلا وضوحًا. ظننت أنني رأيت أن رأسها

كان مائلاً في الاتجاه الآخر. بدأ الخوف يسيطر عليّ، فأطفأت النور. واستدرت لأواجه الحائط، وسحبت ملاءتي فوق رأسي، ورفعت قلنسوتي إلى ذقني، ونمت في النهاية. ولم أجرؤ على النظر إلى النسيج الملعون لعدة أيام. ولكي أجعل القصة غير المعقولة التي سأرويها الآن أكثر معقولية، قد يكون من المفيد أن أخبر قرائي الجميلين أنني كنت في ذلك الوقت فتى جميلاً جداً. فقد كانت لي أجمل عينين في العالم: أقول هذا لأنه قيل لي ذلك؛ وكانت لي بشرة أجمل من التي أملكها الآن، بشرة قرنفليّة حقيقية؛ وكان لي شعر بني مجعد لا أزال أحتفظ به، ولم يعد لي سبعة عشر عاماً وثلاثون عاماً. ولسوء الحظ، كان عمري سبعة وخمسين عاماً وكان لي ثلاثة أسنان وهي كثيرة جداً من جهة وغير كافية من جهة أخرى.

غير أني ذات مساء، اعتدت أن أنظر إلى عشيقة هرقل الجميلة حتى نظرت إليّ بأحزن تعبيرات وجهي وأشدها كآبة. وفي تلك المرة أنزلت قلنسوتي على كتفي وحشرت رأسي تحت المسند، وفي تلك الليلة راودني حلم غريب، إن كان حلماً أصلاً، فقد سمعت حلقات ستائر سريري تنزلق بصراخ على قضبانها، وكأنما كانت الستائر قد سحبت على عجل. استيقظت؛ على الأقل بدا لي في حلمي كما لو كنت قد استيقظت. كان القمر يطل من خلال زجاج

النافذة ويلقي بوهجه الأزرق الباهت عبر الغرفة. كان بالإمكان رؤية ظلال كبيرة وأشكال غريبة على الأرض وعلى الجدران. دقّت الساعة ربع ساعة؛ استغرق الاهتزاز وقتاً طويلاً حتى تهدأ؛ وبدا صوتها مثل التنهيدة. بدت نبضات البندول التي كانت مسموعة تماماً، مثل نبضات قلب شخص عاطفي. لم أكن مرتاحاً ولم أكن أعرف بماذا أفكر. هبت رياح عاتية على المصاريع وفتحت النوافذ وثنت ألواح النوافذ. صرخت الأعمال الخشبية وتموج النسيج. غامرْتُ بالنظر إلى أومفيل ظنًا مني أن لها علاقة بالأمر. اهتز النسيج بعنف. فصلت أومفال نفسها عن الحائط وقفزت بخفة على أرضية الباركيه. لا أعتقد أنه من الضروري أن أعيد سرد دهشتي. فالجندي العجوز الأكثر جرأة لم يكن ليطمئن كثيراً في مثل هذا الظرف، وأنا لم أكن عجوزاً ولا جندياً. انتظرت في صمت حتى نهاية المغامرة.

ودوّى في أذني صوت صغير رقيق لؤلؤي ناعم، بذلك الجرسون الذي كان يؤثره في عهد الوصاية على الماركيز وذوي الذوق الرفيع: (هل أخيفك يا بني؟ صحيح أنك لا تزال طفلا؛ ولكن ليس من الجميل أن تخاف من السيدات، ولا سيما الصغيرات اللاتي يردن لك الخير؛ وليس هذا من الأمانة ولا من الفرنسية؛ يجب أن تصحح هذه المخاوف. هيا، أيها المتوحش الصغير،

اخرج من هذا المزاج ولا تخفي رأسك تحت الأغطية. هناك الكثير مما يجب عمله لتثقيفك، وأنت لم تتقدم كثيراً يا صفحتي الوسيمة، ففي أيامي كان الملاك أكثر تعمداً منك .

-ولكن يا سيدتي...

- إنه يبدو لك غريباً أن تراني هنا وليس هناك، قالت وهي تقرص شفتها الحمراء بأسنانها البيضاء بخفة، وتمد إصبعها الطويل المستدق نحو الحائط . والواقع أن الأمر ليس طبيعياً جداً؛ ولكنني لو شرحت لك الأمر لما فهمته على نحو أفضل، فيكفيك أن تعلم أنك لست في خطر .

-أخشى أنك ...

-الشيطان، دعنا نختصر الكلمة .

هذا ما قصدته؛ على الأقل ستوافقني على أنني لست أسود شديد السواد بالنسبة لشيطان، وأنه لو كان الجحيم مأهولاً بشياطين مخلوقة مثلي لقضى المرء فيه وقتاً ممتعاً كما يقضيه في الجنة. ولكي تظهر أنها لم تكن تتباهى كشفت أمفال عن جلد الأسد وأظهرت لي كتفيها وصدرها ذا الشكل المثالي والبياض الباهر.

قالت في شيء من الغنج الراضي: (حسناً، ماذا تقول؟) (أقول: (ما كنت لأخاف بعد الآن يا مدام أومفال وأنت الشيطان في شخصك. أنا لا أريد أن أكون مداماً لك، ولست أومفال أكثر مما أنا شيطان .

-ما أنت إذن؟

-أنا أتبع الماركيز دي تي***. بعد فترة من زواجي أمر الماركيز بصنع هذا النسيج لشقتي، وصورني فيه في زي أومفال؛ وهو نفسه يظهر فيه في زي هرقل. إنها لفكرة غريبة تلك التي خطرت له هناك؛ لأنه، والله أعلم، لم يكن أحد في العالم يشبه هرقل أكثر من الماركيز المسكين. لم تسكن هذه الغرفة منذ زمن طويل .

وأنا الذي أحب الصحبة بطبيعتي، كنت أشعر بالملل حتى الموت، وأصابني صداع. أن أكون مع زوجي يعني أن أكون وحيدة. وعندما جئت أنت، كنتُ مسرورة جداً، فقد دبت الحياة في هذه الغرفة الميتة، وكان عليَّ أن أعتني بأحدهم. كنتُ أراقبك تروح وتجيئ، وأستمع إلى نومك وأحلامك، وأتابع قراءتك. وجدتك لطيفًا، لطيفًا، أحببتك أخيرًا. حاولت أن أجعلكِ تفهم؛ أطلقتُ تنهداتٍ، لكنك كنت تأخذها كالريح؛ لوحتُ لكِ بنظرات الشوق، لكني لم أنجح إلا في إخافتكِ بشكل مرعب. وفي يأس، قررتُ أن أخطو الخطوة غير

اللائقة التي أخطوها، وأقول لك بصراحة ما لم تستطع سماعه بنصف كلمة. والآن بعد أن عرفت أنني أحبك، آمل أن."...

وكانت المحادثة قد وصلت إلى هذه النقطة عندما دق المفتاح في القفل، فارتجفت أومفال واحمرّ بياض عينيها خجلاً، وقالت: (إلى اللقاء) ثم قالت: (أراك غداً). ومشت عائدة إلى الوراء إلى حائطها، ولا شك أنها كانت خائفة من أن تسمح لي برؤية مؤخرتها.

وكان بابتيست هو الذي جاء ليأخذ ثيابي لينظفها لي. قال: (لقد أخطأت يا سيدي في النوم والستائر مفتوحة). والواقع أن الستائر كانت مفتوحة؛ أما أنا، وقد ظننت أني حلمت حلماً للتو، فقد فوجئت كثيراً لأني كنت متأكداً من أنها كانت مغلقة في المساء، وما أن غادر باتيست حتى هرعت إلى الستائر. تحسستها في كل اتجاه، كان نسيجاً صوفياً حقيقياً، خشن الملمس كأي نسيج آخر .

كانت أومفال تشبه شبح الليل الساحر كما يشبه الرجل الميت الرجل الحي. رفعت اللوحة؛ كان الحائط صلباً؛ لم يكن هناك أي لوحة مخفية أو باب مخفي. لاحظت فقط أن العديد من الأسلاك قد انقطعت في المنطقة التي كانت فيها قدم أومفال. وقد أثار هذا الأمر تفكيري وقضيت اليوم كله في حالة

من التشتت الذي لا مثيل له، وكنت أتطلع إلى المساء بقلق ونفاد صبر. فاعتزلت مبكراً عازماً على أن أرى كيف سينتهي كل شيء. وأويت إلى فراشي؛ ولم تتأخر الماركيزة في المجيء، فقفزت من فوق السارية وجاءتني مباشرة إلى سريري، وجلست إلى جانبي وبدأ الحديث كما في اليوم السابق، فطرحت عليها أسئلة وطلبت منها تفسيرات. وكانت تهربت من بعضها، وأجابت عن بعضها الآخر بمراوغة، ولكن بروح عالية لدرجة أنني بعد ساعة لم أشعر بأدنى هواجس حول علاقتي بها.

وبينما كانت تتحدث، كانت تمرر أصابعها في شعري وتمسح على وجنتيّ وتقبلني قبلة خفيفة على جبهتي وتثرثر، وتثرثر بطريقة ساخرة ولطيفة بأسلوب أنيق ومألوف في آن واحد، بأسلوب أنيق تماماً، لم أجده في أحد من قبلها، جلست أولاً على مقعد بجانب السرير؛ وسرعان ما وضعت إحدى ذراعيها حول عنقي، وكنت أشعر بقلبها يخفق بقوة في وجهي. لقد كانت امرأة جميلة، فاتنة، امرأة حقيقية، ماركيزة حقيقية، تجلس بجانبي. تلميذ مسكين في السابعة عشرة من عمره! كان ذلك كافيًا ليجعلني أفقد عقلي؛ لذا فقدته. لم أكن أعرف حقاً ما كان سيحدث، ولكن كان لدي شعور غامض بأن الماركيز لن يعجبه ذلك: (والسيد لو ماركيز، ماذا سيقول هناك على حائطه؟) كان جلد

الأسد قد سقط على الأرض، وكان الطقم الناعم المزجج بالفضة ملقى بجانب خفيّ. قالت الماركيزة ضاحكة من أعماق قلبها: (لن يقول شيئاً. هل يرى أي شيء؟) إلى جانب ذلك، حتى لو فعل، فهو أكثر الأزواج فلسفةً وهدوءاً في العالم؛ لقد اعتاد على ذلك. هل تحبني يا طفلي؟ نعم، كثيراً، كثيراً جداً."...

جاء ضوء النهار، وغابت عشيقتي، وبدا النهار طويلاً بشكل مخيف. وأخيراً حلّ المساء. وسارت الأمور كما كانت في اليوم السابق، ولم تكن الليلة الثانية أفضل من الأولى. أصبحت الماركيزة أكثر فأكثر روعة. استمر هذا الدوران المرح لبعض الوقت. وبما أنني لم أنم في الليل، فقد كنت أشعر بنوع من النعاس طوال النهار مما لا يبشر بالخير لعمي. وكان يشك في شيء ما؛ ولعله كان يتنصت على الباب ويسمع كل شيء؛ ففي صباح أحد الأيام دخل غرفتي فجأة حتى أن أنطوانيت بالكاد كان لديها الوقت الكافي لتعود إلى مقعدها، وتبعه منجد يحمل كماشة وسلماً، ونظر إليّ نظرة متمردة صارمة جعلتني أرى أنه يعرف كل شيء.

" -إن الماركيزة دي تي*** مجنونة حقاً، فمن أين أتتها فكرة الوقوع في حب شقي كهذا، قال عمي بأسنانه: "لقد وعدتني أن تكون صالحة!

" يا جان، أنزل هذا النسيج ولفه واصعد به إلى العلية." كانت كل كلمة من كلمات عمي طعنة؛ لقد لف جان حبيبتي أومفال، أو الماركيزة أنطوانيت دي تي***، مع هرقل، أو الماركيز دي تي***، وأخذ كل شيء إلى العلية. لم أستطع أن أحبس دموعي، وفي اليوم التالي أعادني عمي بعربة ب*** إلى والديّ المحترمين اللذين لم أنبس إليهما بكلمة عن مغامرتي كما تتصورون جيداً، فقد مات عمي وبيع بيته وأثاثه، وربما بيعت اللوحة النسيجية مع البقية. منذ بعض الوقت، وبينما كنت أتصفح المومياوات في متجر للمقتنيات، عثرت على لفافة كبيرة مغطاة بـنسيج عنكبوت.

"إنه نسيج من الروكوكو يمثل حب مدام أومفال وهرقل؛ إنه من نسيج كله حرير ومحفوظ بشكل جميل. اشتريها لخزانتك؛ لن أبيعها بثمن كثير، لأنها لك أنت، وعند ذكر اسم أومفال، اندفع كل دمي إلى قلبي؛ قلت للبائع بنبرة مقتضبة منكسرة كأنما أصابتني الحمى: (افتح هذا النسيج) لقد كانت هي. فبدا لي أن ثغرها قد ابتسم لي ابتسامة رشيقة وأن عينها قد أضاءت عندما التقت بعيني كم تريد ثمناً له؟ ولكنني لا أستطيع أن أعطيك إياه بأقل من أربعمائة فرنك على أقل تقدير - إنه ليس معي. عدت ومعي النقود وقد اختفى النسيج. لقد ساومني عليه رجل إنجليزي أثناء غيابي وأعطاني

ستمائة فرنك ثم أخذها مني، ولعل من الأفضل في النهاية أن يكون الأمر قد حدث هكذا، وأن أحتفظ بهذه الذكرى اللذيذة سليمة. يقولون إنه لا ينبغي لك أن تزور حبك الأول مرة أخرى أو أن تذهب لترى الوردة التي أعجبت بها في اليوم السابق، و إلى جانب ذلك فأنا لم أعد شاباً أو جميلاً بما فيه الكفاية لكي تنزل المفروشات من الحائط تكريماً لي.

الميّتة العاشقة

أنت تسألني يا أخي إن كنت قد أحببت يوماً، نعم إنها قصة فريدة ورهيبة، ومع أني في السادسة والستين من عمري إلا أني لا أكاد أجرؤ على تحريك رماد هذه الذكرى. أنا لا أريد أن أنكر عليك شيئاً، ولكني لا أريد أن أروي مثل هذه القصة لروح أقل اختباراً. هذه الأحداث غريبة جداً لدرجة أنني لا أستطيع أن أصدق أنها حدثت لي. لقد كنتُ لأكثر من ثلاث سنوات ألعوبة وهمٍ شيطانيٍّ فريدٍ. كنت، أنا الكاهن الريفي الفقير، أحلم كل ليلة (ليكن الله قد منحني أن يكون حلماً!) بحياة الملعونين، حياة الدنيويين وسردنابالوس. ونظرة واحدة إلى امرأة، مملوءة بالرضا عن النفس، ظننت أنها ستكون هلاك روحي؛ ولكنني أخيراً، وبمساعدة الله وقديسي الشفيع، استطعت أن أطرد الروح الشريرة التي استحوذت عليَّ. أصبحت حياتي معقدة بسبب وجود ليلي مختلف تمامًا .

كنت في النهار كاهناً عفيفاً للرب، مشغولاً بالصلاة والأمور المقدسة؛ وفي الليل، صرتُ بمجرد أن أغمض عينيّ شاباً سيداً، متذوقاً للنساء والكلاب

والخيول، ألعب النرد وأشرب الخمر وأجدف؛ وعندما أستيقظ عند الفجر، كان يبدو لي أنني كنت نائماً وأحلم بأنني كاهن .

ومن هذه الحياة الساهرة احتفظت بذكريات من الأشياء والكلمات التي لا أستطيع أن أهرب منها، ومع أنني لم أغادر أسوار كهنوتي، فإنك لو سمعتني لظننتني رجلاً استنفد كل شيء وعاد من العالم، وقد دخل الدين وأراد أن ينهي أيامه المحمومة في حضن الله، رجل دين متواضعًا قد كبر في رعية مجهولة، في أعماق الغابة ولا صلة له بأشياء العالم.

أجل، لقد أحببت كما لم يحب أحد في العالم، حباً جنونياً غاضباً عنيفاً إلى درجة أنني أعجب أنه لم يجعل قلبي ينفجر. آه! يا لها من ليال! يا لها من ليال! منذ طفولتي المبكرة شعرت بأنني مدعو إلى الكهنوت؛ لذلك كانت كل دراساتي موجهة في هذا الاتجاه، وكانت حياتي، حتى سن الرابعة والعشرين، عبارة عن رهبنة طويلة. وبمجرد أن أكملت دراستي اللاهوتية، مررت تباعاً في جميع الرتب الصغرى، وحكم رؤسائي أنني أستحق، رغم صغر سني، أن أخطو الخطوة الأخيرة والهائلة. كان يوم رسامتي محدداً في أسبوع عيد الفصح، ولم أكن قد دخلت العالم قط، فقد كان العالم بالنسبة لي هو محيط الكلية والمدرسة الدينية. كنتُ أدرك بشكل مبهم أن هناك شيئاً اسمه المرأة،

لكنني لم أهتم به؛ كنتُ بريئاً تماماً. كنت أرى أمي العجوز والعاجزة مرتين فقط في السنة. لم أشعر بأي ندم، ولم أكن أشعر بأدنى تردد حيال هذا الارتباط الذي لا رجعة فيه؛ كنت ممتلئاً بالفرح ونفاد الصبر .

لم يسبق لأي خطيب شاب أن عدّ الساعات بحماس محموم أكثر من هذا؛ لم أستطع النوم، كنت أحلم بأنني أتلو القداس؛ أن أكون كاهناً، لم أكن أفكر في شيء أجمل من هذا في العالم: كنت أرفض أن أكون ملكاً أو شاعراً. لم يكن طموحي يتعدى السابعة والأربعين، وما أقوله هنا هو أن أبين لكم كم كان ينبغي ألا يحدث لي ما حدث لي، وكم كنت ضحية سحر لا يمكن تفسيره.

ولما جاء اليوم الموعود، سرت إلى الكنيسة بخطى خفيفة حتى بدا لي أنني كنت مسنودا في الهواء أو أن لي أجنحة على كتفي. ظننت أنني ملاكًا، ودهشت من وجوه رفاقي الكئيبة المشغولة بالهموم والغموم، فقد كنا عدة أشخاص. كنت قد قضيت الليل في الصلاة، وكنت في حالة شبه نشوة. وبدا لي الأسقف، وهو شيخ جليل، مثل الله الآب متكئاً على خلوده، وكنت أرى السماء من خلال أقبية الهيكل، وأنت تعرف تفاصيل هذا الاحتفال: البركة، والمناولة تحت النوعين، ومسح الكفين بزيت الموعوظين، وأخيراً الذبيحة المقدسة التي تقدم مع الأسقف. لن أطيل في ذلك. آه، كم هو محقٌّ أيوب،

وكم هو غير حكيم من لا يعاهد عينيه! وحدث أن رفعت رأسي الذي كنت حتى ذلك الحين مائلاً فرأيت أمامي على مقربة مني، حتى لقد كدت ألمسها، مع أنها في الواقع كانت على مسافة بعيدة وعلى الجانب الآخر، شابة ذات جمال نادر، ترتدي ثياباً ملوكية رائعة. كان الأمر كما لو أن القشور سقطت من على جفني. شعرت وكأنني رجل أعمى استعاد بصره فجأة. وفجأة خفت الأسقف، الذي كان متألقاً جداً في وقت سابق، وتلاشت الشموع على شمعدانها الذهبي كنجوم الصباح، وعم الظلام الدامس أرجاء الكنيسة. برزت المخلوقة الفاتنة على خلفية الظل هذه كوحي ملائكي؛ بدت لي كأنها تضيء بنفسها، تعطي النور بدلاً من أن تتلقاه، فقبلتها.

فأخفضت جفني عازماً على ألا أرفعه مرة أخرى هرباً من تأثير الأشياء الخارجية، لأني كنت أزداد تشتتاً ولا أكاد أعرف ماذا أفعل، وبعد دقيقة فتحت عيني مرة أخرى، لأني رأيتها من خلال أهدابي تتلألأ بألوان المنشور، وفي ضوء نصف قرمزي كما لو كنت أنظر إلى الشمس، آه كم كانت جميلة! إن أعظم الرسامين، عندما سعوا وراء الجمال المثالي في السماء، وأنزلوا إلى الأرض الصورة الإلهية للسيدة العذراء، لم يقتربوا حتى من هذه الحقيقة الرائعة. لا يمكن لأبيات الشاعر ولا لوحة الرسام أن تعطي أي فكرة عنها .

لقد كانت طويلة القامة بما فيه الكفاية، لها قامة الآلهة وقوامها، وشعرها أشقر ناعم، وقد انفرقت من أعلى رأسها وانسابت على صدغيها كنهرين من الذهب؛ وكانت تبدو كملكة بإكليلها؛ وجبينها ذو البياض الشفاف المائل إلى الزرقة والشفافية ممتد على اتساعه وهدوءه فوق قوسين من رموشها شبه بنيتين، وهي فرادة أضافت إلى تأثيرها عينين خضراوين بحريتين لا تطاقان حيوية وبريقاً. يا لها من عينين! بلمح البصر كانتا تقرران مصير الإنسان؛ وكان فيهما حياة ونشاط وحماسة و إنسانية باهرة لم أر مثلها في عين إنسان قط؛ وكانت تنطلق منهما أشعة كالسهام.

والتي يمكنني أن أراها بوضوح تقودني إلى قلبي الخمسين. لا أعرف ما إذا كانت الشعلة التي أضاءت لهم قد أتت من السماء أم من الجحيم، لكنها بالتأكيد أتت من أحدهما. كانت هذه المرأة ملاكًا أو شيطانًا، وربما كلاهما معًا؛ ومن المؤكد أنها لم تأت من جهة حواء، الأم المشتركة. كانت أسنانها من أجمل ما في الشرق تتلألأ في ابتسامتها الحمراء، وكانت الغمازات الصغيرة محفورة في الساتان الوردي لوجنتيها الجميلتين مع كل انحناءة من فمها .

أما أنفها فقد كان من أكثر الأنوف فخامة وكبرياء، يدل على أنبل الأصول. وكانت بوارق العقيق تتلاعب على جلدها الناعم اللامع على كتفيها النصف مكشوفة، وكانت خيوط من اللؤلؤ الأشقر الكبير الذي يكاد يكون بنفس لون عنقها تنساب على صدرها. ومن وقت لآخر كانت ترفع رأسها بحركة متموجة كثعبان أو طاووس يلتهم نفسه، وترتعش قليلاً من الفراولة المطرزة العالية التي كانت تحيط بها مثل شبكة فضية.

وكانت ترتدي ثوباً مخملي، ومن أكمامها الواسعة المبطنة بالأرمين تبرز يدان أرستقراطيتان في غاية الرقة، بأصابع طويلة ممتلئة ذات شفافية مثالية شفافة تجعل النهار يمر مثل نهار الشفق.

كل هذه التفاصيل لا تزال حية بالنسبة لي كما لو كانت بالأمس، وعلى الرغم من أنني كنت في حالة من الارتباك الشديد، لم يفلت مني شيء: أدنى فارق بسيط، النقطة السوداء الصغيرة في زاوية الذقن، الزغب غير المحسوس في زوايا الفم، الملمس المخملي للجبين، الظل المرتعش للرموش على الخدين، لقد أدركت كل شيء بوضوح مدهش.

وكلما أمعنت النظر، كلما شعرت بأن أبواباً انفتحت في داخلي كانت مغلقة حتى الآن؛ وانفتحت كوى مسدودة في كل الاتجاهات كاشفة عن آفاق

مجهولة؛ وبدت لي الحياة في ضوء مختلف تماماً؛ لقد ولدت للتو في نظام جديد من الأفكار. سيطر على قلبي ألم رهيب؛ وبدت كل دقيقة تمر وكأنها ثانية وقرن من الزمان. ومع ذلك فقد استمر الحفل، وانطلقت بعيداً عن العالم الذي كانت رغباتي الوليدة تحاصرني بشراسة عند مدخله. ولكنني قلت نعم عندما أردت أن أقول لا، عندما كان كل شيء في داخلي يثور ويحتج على العنف الذي كان لساني يمارسه على روحي: كانت قوة خفية تمزق الكلمات من حلقي رغمًا عني. ولعل هذا هو السبب في أن الكثير من الفتيات الصغيرات يذهبن إلى المذبح بعزم أكيد على رفض الزوج المفروض عليهن، ولا تنفذ واحدة منهن خطتها. وهذا بلا شك هو السبب الذي يجعل الكثير من المبتدئات المسكينات يرتدين الحجاب، مع أنهن عازمات على تمزيقه إربًا إربًا عندما يأخذن نذورهن. فأنت لا تجرئين أن تتسببي في مثل هذه الفضيحة أمام الجميع أو أن تخدعي توقعات الكثير من الناس؛ فكل تلك الرغبات، وكل تلك النظرات تبدو وكأنها تثقل عليك كغطاء من الرصاص: ثم إن التدابير متخذة جيدًا، وكل شيء منظم مسبقًا، ومن الواضح أنه لا رجعة فيه، حتى أن العقل يستسلم لثقل الشيء ويغرق تمامًا. كانت نظرات الغريبة الجميلة

تتغير تعابيرها تبعًا لتقدم الحفل. فبعد أن كانت رقيقة ومداعبة في البداية، أخذت في البداية طابعاً من الازدراء والسخط، كما لو أنها لم تكن مفهومة. وظل لساني ملتصقاً بسقف فمي، وكان من المستحيل أن أعبر عن إرادتي بأدنى حركة سلبية. كنت في حالة تشبه حالة الكابوس، حيث تريد أن تصرخ بكلمة تتوقف عليها حياتك، ولكنك لا تستطيع أن تفعل، فبدت حساسة لما كنت أمر به من استشهاد، وكأنها تشجعني بنظرة مليئة بالوعود الإلهية. كانت عيناها كقصيدة، وكل نظرة منها أغنية وقالت لي: "إذا أردت أن تكوني لي فسأجعلك أسعد من الله نفسه في جنته، وستحسدك الملائكة. مزق هذا الكفن الجنائزي الذي توشك أن تلف نفسك به؛ أنا الجمال، أنا الشباب، أنا الحياة؛ تعال إليّ وسنكون حباً. ما الذي يمكن أن يقدمونه لك كتعويض؟ سوف ينساب وجودنا كالحلم ولن يكون سوى قبلة أبدية.

" اسكب الخمر من هذه الكأس وستكون حراً. سآخذك إلى الجزر المجهولة، وستنام في حضني، على سرير من الذهب الخالص وتحت سرادق من الفضة، لأني أحبك وأريد أن آخذك من إلهك الذي تسكب أمامه قلوب نبيلة كثيرة جدا جدا من تيارات الحب التي لا تصل إليه." وبدا لي أنني كنت أسمع هذه الكلمات في إيقاع من الحلاوة اللامتناهية، فقد كانت نظراتها تكاد تكون

رنانة، وكانت العبارات التي كانت ترسلها عيناها إليّ تدوي في أعماق قلبي كأنما نفثها في روحي فم خفي. شعرتُ بأنني على استعداد لأن أكفر بالله، ومع ذلك كان قلبي يقوم آلياً بإجراءات المراسم. ونظرت إليّ تلك المرأة الجميلة نظرة ثانية متوسلة يائسة متوسلة، فثقب قلبي نصال حادة وشعرت بسيوف في صدري أكثر من أم الأحزان. كان ذلك كل شيء.

لقد كنت كاهناً، الفتاة الصغيرة التي ترى خطيبها يسقط ميتاً بجانبها، والأم بجانب مهد طفلها الفارغ، وحواء الجالسة على عتبة باب الجنة، والبخيل الذي يجد حجراً في مكان كنزه، والشاعر الذي ترك المخطوطة الوحيدة من أجمل أعماله تتدحرج في النار، لا تبدو أبداً أكثر فزعاً وحسرة من هذه الفتاة. لقد جف الدم تماماً من وجهها الجميل، وصارت بيضاء كالرخام؛ وسقطت ذراعاها الجميلتان على جسدها كما لو كانت عضلاتها قد ارتخت، واستندت إلى عمود لأن ساقيها انحنيتا تحتها. أما أنا، وأنا غاضب وجبهتي مغمورة بعرق أكثر دموية من عرق الجلجلة، ترنحت نحو باب الكنيسة، كنت أختنق، كانت القباب قد انبسطت على كتفي، وبدا لي أن رأسي وحده كان يحمل ثقل القبة بأكمله. وبينما كنت على وشك عبور العتبة، أمسكت بيدي فجأة؛ يد

امرأة! لم ألمس يد امرأة من قبل. كانت باردة مثل جلد الأفعى، وبقيت بصمتها معي مثل حديد ملتهب. كانت هي. "أيتها التعيسة! أيتها التعيسة ! ماذا فعلت؟" قالت بصوت منخفض، ثم اختفت وسط الزحام.

مرّ الأسقف العجوز، ونظر إليّ بصرامة. فارتسمت على وجهي أغرب تعابير وجه في العالم؛ شحب وجهي واحمرّ. أشفق عليَّ أحد زملائي في الصف، فحملني بعيدًا؛ لم أكن لأستطيع أن أجد طريق العودة إلى المعهد الديني بمفردي. وعند منعطف الطريق، وبينما كان الكاهن الشاب يدير رأسه في الاتجاه الآخر، تقدم إليّ أحد الزنوج، وكان يرتدي ملابس غريبة، وناولني دون أن يتوقف في طريقه محفظة صغيرة ذات زوايا ذهبية وأشار إليّ أن أخفيها، فوضعتها في كمي وأمسكتها هناك حتى خلوت بنفسي. فتحتُ المشبك فلم أجد سوى ورقتين مكتوب عليهما: "كلاريموندي، في قصر كونسيني". في ذلك الوقت لم أكن أعرف الكثير عن الحياة لدرجة أنني لم أكن أعرف كلاريموند، على الرغم من شهرتها، ولم يكن لدي أي فكرة عن مكان قصر كونتشيني. وقد خمنت ألف تخمين، كل واحد منها كان أكثر إسرافاً من سابقه؛ ولكن الحقيقة أنني ما دمت قد رأيتها مرة أخرى فقد كنت قلقاً جداً جداً مما قد تكون عليه، سيدة كبيرة أو مومس.

كان الحب الذي شعرت به للتو قد ترسّخ فيّ بشكل لا يمكن اقتلاعه؛ لم أفكر حتى في محاولة اقتلاعه، لدرجة أنني شعرت أن ذلك مستحيل. كانت هذه المرأة قد استحوذت عليَّ تماماً، نظرة واحدة كانت كافية لتغيرني؛ لقد نفثت فيَّ من إرادتها؛ لم أعد أعيش في نفسي بل فيها ومن خلالها. قمتُ بألف شيء باهظ، وقبّلتُ على يدي المكان الذي لامسته، ورددتُ اسمها لساعات طويلة. كل ما كان عليَّ أن أفعله هو أن أغمض عينيَّ لأراها بوضوح كما لو كانت هناك حقاً، وكنت أردد في نفسي الكلمات التي قالتها لي تحت بوابة الكنيسة: "أيتها البائسة، أيتها البائسة، ماذا فعلتِ؟ لقد فهمت الرعب الكامل لحالتي، وانكشفت لي بوضوح الجوانب المظلمة والفظيعة للحالة التي اعتنقتها للتو. أن تكون كاهناً، أن تكون عفيفاً لا تعشق، أن لا تعرف الجنس ولا العمر، أن تبتعد عن كل جمال، أن تفقأ عينيك، أن تزحف تحت الظل الجليدي في دير أو كنيسة، أن ترى فقط المحتضرين، أن تسهر على جثث مجهولة وأن تلبس ثوب الحداد على ردائك الأسود حتى يمكن أن تجعل من ردائك ملاءة لتابوتك!

وشعرتُ بالحياة تنتفض في داخلي كبحيرة داخلية تنتفخ وتفيض، وخفق دمي بقوة في شراييني، وانفجر شبابي الذي طالما كان مكبوتاً فجأة كالصبار الذي يستغرق مائة عام ليزهر ثم ينفجر بهدير الرعد.

كيف يمكنني رؤية كلاريموند مرة أخرى؟ لم يكن لدي أي سبب لمغادرة المعهد الديني، إذ لم أكن أعرف أحدًا في البلدة، ولم يكن من المفترض أن أبقى هناك، وكنت أنتظر فقط أن يخبرني أحد إلى أين سأذهب .

حاولت أن أفتح قضبان النافذة، لكنها كانت على ارتفاع مخيف، وبما أنني لم أكن أملك سلمًا، فلم أكن بحاجة إلى التفكير في الأمر. بالإضافة إلى ذلك، لم يكن بإمكاني النزول إلا في الليل، وكيف كنت سأتدبر أمري في متاهة الشوارع التي لا يمكن فكها؟ كل هذه الصعوبات، التي لم تكن لتشكل شيئاً بالنسبة لغيري، كانت هائلة بالنسبة لي، أنا الإكليريكي الفقير، العاشق منذ الأمس، بلا خبرة ولا مال ولا ثياب، آه! لو لم أكن كاهناً، لاستطعت أن أراها كل يوم، لكنت حبيبها وزوجها، قلت لنفسي في عمى بصيرتي؛ وبدلاً من أن أكون ملفوفاً في كفني الحزين كنت سأحظى بملابس حريرية ومخملية وسلاسل ذهبية وسيف وريش مثل الفرسان الشبان الوسيمين. وبدلاً من أن يكون شعري مشوهًا بغطاء الرأس الكبير، كان

شعري سيلتف حول عنقي في تجعيدات متموجة. سيكون لي شارب جميل مشمّع بالشمع، وسأكون رجلاً شجاعاً. ولكن ساعة واحدة أقضيها أمام مذبح، وكلمات قليلة لا تكاد تنطق، كانت ستقطعني إلى الأبد من صفوف الأحياء، وكنت أنا نفسي سأكون قد ختمت حجر قبري، كنت سأدفع بيدي قفل سجني!

ذهبت إلى النافذة. كانت السماء زرقاء رائعة الزرقة؛ وكانت الأشجار قد لبست ثوب الربيع؛ وكانت الطبيعة تستعرض بهجة ساخرة. وكانت الساحة تعج بالناس؛ وكان بعضهم قادماً وبعضهم ذاهباً؛ وكانت زنابق الوادي الصغيرة والحسناوات الصغيرات، زوجين زوجين، ستين زوجاً يتجهون نحو الحديقة والعرائش .

وكان بعض الرفاق يمرون وهم ينشدون ألحان الشراب؛ وكانت حركة وحياة وحيوية وبهجة تبعث في نفسي ألماً وحزناً، وتخرج من نفسي وحشتي. وكانت أم شابة على عتبة الباب تلعب مع طفلها، وكانت تقبل فمه الوردي الصغير، وهو لا يزال ملطخاً بقطرات اللبن، وتلاعبه بألف من تلك المداعبات الإلهية التي لا تعرفها إلا الأمهات. وكان الأب الذي كان واقفاً على مسافة بعيدة يبتسم في رفق لهذه المجموعة الساحرة، وقد ضم ذراعيه المطويتين

على قلبه فرحا. ولم أستطع أن أحتمل هذا المنظر، فأغلقت النافذة وألقيت بنفسي على فراشي وفي قلبي حقد مروع وغيرة مروعة، وعضضت أصابعي وبطانيتي كنمر صائم منذ ثلاثة أيام.

ولا أدري كم من الوقت بقيت هكذا، ولكني عندما التفتُّ في تشنج غاضب رأيت الأب سيرابيون واقفاً في وسط الغرفة ينظر إليّ باهتمام. فخجلت من نفسي، وأسندت رأسي إلى صدري، وغطيت عيني بيدي. قال سيرابيون بعد صمت بضع دقائق: "يا رومولد، يا صديقي، إن شيئاً عجيباً يحدث لك، إن سلوكك لا يمكن تفسيره حقاً! أنت، أنت التقي جداً، الهادئ جداً واللطيف جداً، تتحرك في خلوتك مثل وحش متوحش. احذر يا أخي ولا تستمع إلى إيحاءات الشيطان، فالروح الشريرة الذي أغضبها أنك كرست نفسك للرب إلى الأبد، تطوف حولك كذئب مبهج وتبذل جهدها الأخير لتجذبك إلى نفسها. فبدلاً من أن تدعها تنال منك، يا عزيزي رومولد، اصنع لنفسك درعًا من الصلوات، ودرعًا من المهلكات، وحارب العدو ببسالة؛ وسوف تهزمه. فالتجارب ضرورية للفضيلة والذهب يخرج من الصنعة أجود. لا تخافوا ولا تثبطوا عزيمتكم، فأفضل النفوس وأقواها قد مرّت عليها لحظات. صلوا

وصوموا وتأملوا وسوف تتراجع الروح الشريرة. كلمات الأب سيرابيون أعادتني إلى نفسي، فصرت أهدأ قليلاً.

"لقد جئت لأعلن تعيينك في كهنوت س***؛ لقد مات الكاهن الذي كان يشغلها للتو، وطلب مني سيدي الأسقف أن أذهب وأثبتك هناك؛ كن مستعداً للغد. أومأت برأسي أنني سأكون كذلك، وانسحب رئيس الدير. فتحت كتاب القداس وبدأت أقرأ الصلوات، ولكن سرعان ما اندمجت السطور أمام عيني؛ وتشابكت خيوط الأفكار في ذهني، وانزلق المجلد من يدي دون أن ألتفت إليه. أن أرحل غداً دون أن أراها! أن أضيف استحالة أخرى إلى كل الاستحالات التي كانت بيننا! أن أفقد إلى الأبد الأمل في لقائها، إلا بمعجزة! إلى من سأرسل رسالتي؟ مع شخصيتي المقدسة، بمن يمكنني أن أثق؟ شعرت بقلق رهيب. ثم تذكرت ما أخبرني به الأب سيرابيون عن حيل الشيطان، إن غرابة المغامرة، وجمال كلاريموند الخارق للطبيعة، والوهج الفسفوري لعينيها، والانطباع الحارق ليدها، والارتباك الذي ألقتني فيه، والتغير المفاجئ الذي حدث فيّ، وتلاشي تقواي في لحظة، كل هذا أثبت بوضوح وجود الشيطان، وربما كانت تلك اليد اللامعة مجرد قفاز غطى به

مخلبه. التقطت القداسة التي تدحرجت من على ركبتي إلى الأرض، وبدأت أصلي من جديد.

وفي اليوم التالي، جاء سيرابيون ليأخذني؛ وكان ينتظرنا بغلان عند الباب محملين برحالنا الهزيلة؛ فامتطى هو أحدهما، وامتطيت أنا الآخر قدر استطاعتي. وبينما كنت أسير في شوارع المدينة، نظرت في كل نافذة وشرفة، لأرى إن كنت أستطيع أن أرى كلاريموند؛ ولكن الوقت كان مبكراً جداً، ولم تكن المدينة قد فتحت عيونها بعد. حاولت أن أنظر من وراء الستائر ومن خلال ستائر كل القصور التي مررنا بها. ولا شك أن سيرابيون قد عزا هذا الفضول إلى إعجابي بجمال العمارة، لأنه أبطأ من سرعة حصانه ليعطيني الوقت لأرى. وأخيراً وصلنا إلى بوابة المدينة وبدأنا في تسلق التل. وعندما وصلت إلى القمة استدرت لألقي نظرة أخرى على منزل كلاريموند .

كان ظل السحابة قد غطى المدينة بالكامل، وكانت سقوفها الزرقاء والحمراء قد امتزجت في نصف لون عام، مع أبخرة الصباح التي تطفو هنا وهناك مثل رقائق بيضاء من الرغوة. وبتأثير بصري فريد، برز مبنى أشقر وذهبي تحت شعاع واحد من الضوء، يفوق في ارتفاعه المباني المجاورة، وقد غرق تماماً في البخار؛ وعلى الرغم من أنه كان على بعد أكثر من فرسخ إلا أنه بدا قريباً

جداً. سألت سيرابيون: (ما هذا القصر الذي أراه على طول الطريق هناك، وقد أضاءه شعاع من ضوء الشمس؟ فوضع يده على عينيه، وبعد أن نظر، أجابني: (إنه القصر القديم الذي أهداه الأمير كونسيني إلى المحظية كلاريموند؛ إنه شيء مخيف(.

ولا شك أن سيرابيون قد عزا هذا الفضول إلى إعجابي بجمال العمارة، لأنه أبطأ من سرعة حصانه ليعطيني وقتاً لأرى. وأخيراً وصلنا إلى بوابة المدينة وبدأنا في تسلق التل. وعندما وصلت إلى القمة استدرت لألقي نظرة أخرى على منزل كلاريموند .

كان ظل السحابة قد غطى المدينة بالكامل، وكانت سقوفها الزرقاء والحمراء قد امتزجت في نصف لون عام، مع أبخرة الصباح التي تطفو هنا وهناك مثل رقائق بيضاء من الرغوة. وبتأثير بصري فريد، برز مبنى أشقر وذهبي تحت شعاع واحد من الضوء، يفوق في ارتفاعه المباني المجاورة، وقد غرق تماماً في البخار؛ وعلى الرغم من أنه كان على بعد أكثر من فرسخ إلا أنه بدا قريباً جداً. ؛ إن أشياء مرعبة تحدث هناك. في تلك اللحظة، ولا زلت لا أدري أهي حقيقة أم وهم، ظننت أنني رأيت شكلاً أبيض نحيفاً يتسلل عبر الشرفة الخامسة والستين، ويتلألأ لثانية ثم يتلاشى. كانت كلاريموند!

آه، هل كانت تعلم أنني في تلك الساعة، ومن أعلى ذلك الدرب الوعر الذي أخذني بعيداً عنها، وأنني لن أنزل منه مرة أخرى أبداً وأنا متحمس وقلق، كنت أراقب القصر الذي تسكنه، وأن تلاعباً ساخراً من الضوء بدا لي أنه يقربها مني، وكأنه يدعوني لأصبح سيدها؟ لا شك أنها كانت تعرف، لأن روحها كانت أوثق من أن لا تشعر بأدنى رعشة، وكان هذا الشعور هو الذي دفعها وهي لا تزال ملتحفة بجلباب الليل إلى الصعود إلى أعلى الشرفة في ندى الصباح الجليدي. لقد غطى الظل القصر، ولم يكن إلا محيطاً ساكناً من السقوف والعلالي لا يميز فيه شيء سوى موج صاعد. ولمس سيرابيون بغلته فسرعان ما سار بخطواته التي سارعت أنا إلى السير في خطاها، وأخفى عني منعطف في الطريق بلدة س... إلى الأبد، إذ لم يكن لي أن أعود. وفي نهاية رحلة استغرقت ثلاثة أيام عبر ريف حزين نوعاً ما، رأينا من خلال الأشجار ديك برج الكنيسة التي كنت سأخدمها؛ وبعد أن سلكنا بضعة شوارع متعرجة تصطف على جانبيها أكواخ من القش وساحاتها، وجدنا أنفسنا أمام الواجهة التي لم تكن ذات روعة كبيرة. رواق مزين ببضعة أضلاع وعمودين أو ثلاثة من الحجر الرملي المنحوت بشكل بدائي، وسقف من القرميد ودعامات من نفس الحجر الرملي الذي نحتت عليه الأعمدة، هذا كل

شيء: إلى اليسار المقبرة المليئة بالعشب الطويل، يتوسطها صليب حديدي كبير؛ و إلى اليمين وفي ظل الكنيسة الكاهن .

كان بيتاً في غاية البساطة والنظافة القاحلة. دخلنا؛ كانت بضع دجاجات تنقر على حبات نادرة من الشوفان على الأرض؛ ويبدو أنها اعتادت على عادة رجال الدين السوداء، فلم تخف من وجودنا ولم تتحرك بصعوبة للسماح لنا بالمرور. سُمع نباح أجش مبحوح، ورأينا كلبًا عجوزًا يركض.

كانت عيناه باهتة وشعره أشيب وكل أعراض أعلى عمر يمكن أن يصل إليه كلب في السابعة والستين. ربتُ عليه بيدي برفق، فبدأ على الفور بالمشي بجانبي برضا لا يمكن التعبير عنه. وجاءت لمقابلتنا أيضاً امرأة مسنة نوعاً ما كانت مدبرة منزل كاهن الرعية السابق، وبعد أن أدخلتني إلى غرفة سفلية سألتني إن كنت أنوي الاحتفاظ بها. فأخبرتها بأنني سأحتفظ بها وبالكلب، وكذلك بالدجاج وكل الأثاث الذي تركه لها سيدها عند وفاته، مما جعلها تهتز من الفرح، وقد أعطاها الأب سيرابيون في الحال الثمن الذي تريده. وما إن استقر بي المقام حتى عاد الأب سيرابيون إلى المدرسة الدينية. وهكذا بقيت وحدي وبدون أي سند غيري. وبدأ التفكير في كلاريموند يستحوذ عليَّ من جديد، ومهما حاولت جاهداً أن أطرده لم أنجح دائماً. وذات مساء، بينما كنت

أتنزه في ممرات حديقتي الصغيرة المبطنة بالصناديق بدا لي أنني أرى من خلال الكوخ شكل امرأة تتبع كل حركة من حركاتي، وبين أوراق الشجر عينان خضراوان تلمعان؛ ولكن ذلك لم يكن إلا وهماً، وبعد أن مررت إلى الجانب الآخر من الطريق لم أجد شيئاً هناك سوى أثر قدم على الرمال صغيرة جداً لدرجة أنها بدت كقدم طفل. كانت الحديقة محاطة بأسوار عالية جداً؛ وقد زرت كل زاوية وركن فيها، ولكن لم يكن هناك أحد. لم أستطع قط أن أفسر هذا الظرف الذي لم يكن، بالمناسبة، شيئًا بالمقارنة مع الأشياء الغريبة التي كانت ستحدث لي. كنت قد عشت هكذا لمدة سنة كاملة، أقوم بكل دقة بكل واجبات ولايتي، أصلي وأصوم وأعظ وأساعد المرضى، وأتصدق إلى حد الانقطاع عن أكثر الضروريات التي لا غنى لي عنها. ولكنني شعرت بجفافٍ شديدٍ فوقي، وكانت ينابيع النعمة مغلقةً أمامي. كانت أفكاري في مكان آخر، وكثيراً ما كانت كلمات كلاريموند تتردد على شفتيّ كنوع من التكرار اللاإرادي. يا أخي، تأمل هذا جيداً! لأني بعد أن رفعت عينيّ مرة واحدة إلى امرأة، من أجل خطأ يبدو بسيطاً، عانيت لعدة سنوات من أكثر الاضطرابات بؤساً: لقد تعطلت حياتي إلى الأبد.

لن أطيل الحديث عن هذه الهزائم والانتصارات الداخلية التي تعقبها دائماً انتكاسات أعمق، وسأنتقل فوراً إلى ظرف حاسم. ذات ليلة رن جرس الباب بعنف. وذهبت مدبرة المنزل العجوز لتفتح الباب، و إذا برجل ذي بشرة نحاسية ولباسه أنيق، ولكن في هيئة غريبة، وبيده خنجر طويل، ظهر تحت أشعة فانوس باربرا. وكان أول رد فعل لها هو الفزع؛ ولكن الرجل طمأنها، وقال لها إنه يريد أن يراني في الحال لأمر يتعلق بخدمتي. أرسلته باربرا إلى الطابق العلوي. كنت على وشك الذهاب إلى الفراش. فأخبرني الرجل أن عشيقته، وهي سيدة عظيمة جداً، كانت تحتضر وتريد كاهناً. فأجبته بأنني مستعد أن أتبعه، فأخذت معي ما أحتاج إليه من أجل المسحة الشديدة وأسرعت إلى الأسفل. وكان عند الباب حصانان أسودان كالليل ينفثان من صدورهما تيارين طويلين من الدخان يتدافعان بفارغ الصبر. أمسك لي الركاب وساعدني على ركوب أحدهما، ثم قفز على الآخر واضعاً يداً واحدة فقط على حافة السرج. وترك اللجام لحصانه الذي انطلق كالسهم. أما حصاني، الذي كان يمسك بلجامه، فقد انطلق هو الآخر وانطلق مسرعًا وحافظ على استوائه تمامًا. لقد التهمنا الطريق؛ كانت الأرض تدور رمادية اللون ومخططة تحتنا، وهربت ظلال الأشجار السوداء كجيش مهزوم. مررنا عبر غابة معتمة ومظلمة

كالثلج لدرجة أنني شعرت برعشة من الرعب الخرافي تسري في جلدي. وكان الشرر الذي مزقته أحذية خيولنا من الأحجار يترك أثراً من النار أثناء مرورنا، ولو أن أحداً رآني أنا وسائقي في تلك الساعة من الليل لاعتقدنا شبحين يركبان الكابوس. وكان طائران من طيور الويلز يعبران الطريق من وقت لآخر، وكانت طيور الغراب تغرد بشفقة في سمك الغابة، حيث كانت العيون الفسفورية لبعض القطط البرية تلمع من وقت لآخر. كانت أعراف الخيول تزداد شعثاً، وكان العرق يتصبب من جوانبها وأنفاسها تخرج من خياشيمها في اندفاع صاخب. ولكن عندما رآهم يضعفون، كان الفارس، لكي ينعشهم، يطلق صرخة حلقية ليس فيها شيء من الإنسانية فيبدأ السباق من جديد بغضب شديد .

وأخيراً توقفت الزوبعة؛ وفجأة ارتفعت أمامنا كتلة سوداء تعلوها بضع بقع مضيئة؛ وكان وقع أقدام خيولنا يعلو على أرضية حديدية، ودخلنا قبواً يفتح فوهته المظلمة بين برجين هائلين، ثم دخلنا في قبو يفتح فوهته المظلمة بين برجين هائلين. كانت هناك جلبة عظيمة في القلعة؛ وكان الخدم الذين يحملون المشاعل في أيديهم يعبرون الأفنية في كل الاتجاهات، وكانت الأضواء تصعد وتنزل من مهبط إلى مهبط .

ولمحت لمحة غامضة من العمارة الهائلة والأعمدة والأروقة والمنحدرات، وكان البناء فاخراً ملكياً تماماً وشبيهاً بالحكايات الخيالية. جاءني خادم زنجي، هو نفسه الذي أعطاني ألواح كلاريموند والذي تعرفت عليه في الحال، ليساعدني في النزول، وجاء لمقابلتي خادم يرتدي مخملًا أسود مع سلسلة ذهبية في ياقته وعصا عاجية في يده. وانهمرت دموع كبيرة من عينيه وسالت على خديه وعلى لحيته البيضاء. قال وهو يهز رأسه: (لقد فات الأوان يا سيدي الكاهن) ولكن إذا لم تستطع إنقاذ الروح، فتعال واعتن بالجسد المسكين .

فأخذني من ذراعي وقادني إلى صالون الجنازة؛ وبكيت بشدة كما بكى هو، لأني أدركت أن المرأة الميتة لم تكن سوى كلاريموند التي أحبها بجنون. وكان بجانب السرير شعلة مزرقة ترفرف على وتد برونزي تلقي ضوءاً خافتاً مريباً على الغرفة كلها، وكانت تومض في الظلال هنا وهناك بعض أطراف الأثاث البارزة. وعلى الطاولة، في جرة منقوشة كانت ترقد وردة بيضاء ذابلة سقطت أوراقها كلها على سفح المزهرية كالدموع العطرة باستثناء ورقة واحدة كانت لا تزال متماسكة؛ وكان قناع أسود مكسور، ومروحة، وأزياء تنكرية

من كل الأنواع، مبعثرة على الكراسي بذراعين مما جعل من الواضح أن الموت قد وصل إلى هذا المسكن الفخم على غير توقع ودون سابق إنذار.

ركعت دون أن أجرؤ على النظر إلى السرير، وبدأت أتلو المزامير بحماسة شديدة، شاكراً الله أنه وضع القبر بيني وبين فكرة هذه المرأة، حتى أستطيع أن أضيف اسمها المقدس الآن إلى صلواتي. ولكن شيئًا فشيئًا تباطأ هذا الاندفاع، وسقطت في حالة من التأمل .

لم يكن هناك شيء مميت في هذه الغرفة. فبدلاً من الهواء النتن الذي اعتدت أن أتنفسه في هذه الجنائز القديمة، كان هناك دخان رقيق من العطور الشرقية، ولا أدري ما هي الرائحة الغرامية لامرأة، يعبق بلطف في الهواء غير النمطي .

وبدا هذا الوهج الشاحب أشبه بنصف ضوء مخصص للشهوة، منه بالوهج الأصفر الذي يبعثه ضوء الليل الذي يرتجف قرب الجثث. فكرت في المصادفة الفريدة التي قادتني إلى العثور على كلاريموند في اللحظة نفسها التي فقدتها فيها إلى الأبد، وانطلقت من صدري تنهيدة أسف. وبدا لي أن شخصاً ما قد تنهد خلفي أيضاً، فالتفتُّ لا إرادياً. كان الصدى. ومع تلك الحركة، وقعت عيناي على سرير العرض الذي كنت أتحاشاه حتى ذلك

الحين. كانت الستائر الدمشقية الحمراء ذات الزهور الكبيرة واللفائف الذهبية تظهر المرأة الميتة مستلقية بكامل طولها، ويداها مشبكتان على صدرها. وكانت مغطاة بغطاء من الكتان ناصع البياض، وقد زاد من وضوحه اللون الأرجواني الداكن للستائر، وكان من الدقة بحيث لم يخف شكل جسدها الساحر الذي يسمح للمرء بتتبع خطوطه المتموجة الجميلة كعنق البجعة التي لم يستطع حتى الموت أن ييبسها. كانت تبدو كتمثال من المرمر صنعه نحات ماهر ليجلس على قبر ملكة، أو كفتاة صغيرة نائمة والثلج يتساقط عليها. ولم أستطع أن أحتمل أكثر من ذلك؛ فقد أسكرني هواء الكوة، وتصاعدت إلى دماغي رائحة الورد المحموم نصف الذابلة، وسرت بخطوات واسعة في الغرفة، وكنت أقف في كل منعطف أمام المنصة لأنظر إلى الفقيدة الرشيقة تحت شفافية كفنها .

وخطرت في ذهني أفكار غريبة؛ وتصورت أنها لم تكن ميتة حقاً، وأن ذلك لم يكن إلا خدعة استدرجتني بها إلى قلعتها وتخبرني بحبها. وخيل إليّ للحظة أنني رأيت قدمها تتحرك في الطرحة البيضاء، وثنايا الكفن المستقيمة، ثم قلت في نفسي: (أهذه حقاً كلاريموند، وما الدليل على ذلك؟ ألا يمكن أن تكون هذه الصفحة السوداء في خدمة امرأة أخرى؟ إنني أحمق

لأكون في غاية الأسى والاضطراب. ولكن قلبي أجابني بخفقة: إنها هي، إنها هي. فاقتربت من السرير ونظرت بانتباه مضاعف إلى موضوع حيرتي. لقد أزعجني هذا الكمال في الشكل، على الرغم من أنه قد طهره وقدسه ظل الموت، أكثر مما ينبغي أن يكون، وكانت هذه الراحة أشبه بالنوم إلى حد كبير حتى لكأنها كانت خطأ. ونسيت أنني جئت إلى هناك لحضور جنازة، وخيل إليّ أنني عريس شاب يدخل غرفة نوم عروس تخفي وجهها حياءً ولا تريد أن يراها أحد. وانحنيت نحوها وأنا مضطرب من الألم، مذهول من الفرح، مرتجف من الخوف والسرور، فانحنيت نحوها وأخذت بطرف الملاءة؛ ورفعتها ببطء وأنا أحبس أنفاسي خوفاً من إيقاظها. كانت شراييني تنبض بقوة لدرجة أنني كنت أشعر بصفيرها في صدغي، وكان جبيني يتصبب عرقاً كما لو كنت أهز لوحاً من الرخام.

لقد كانت بالفعل كلاريموند كما رأيتها في الكنيسة يوم رسامتي؛ وكانت فاتنة كما كانت، وبدا لها الموت غنجاً إضافياً. لقد كان شحوب وجنتيها وشحوب شفتيها الورديتين اللتين كانتا أقل زهواً من شفتيها، ورموشها الطويلة المنسدلة التي تقطع أطرافها البنية على هذا البياض، قد أعطتها تعبيراً من العفة الكئيبة والمعاناة المتأملة ذات قوة مغرية لا يمكن التعبير

عنها؛ وكان شعرها الطويل غير المربوط، مع بضع زهرات زرقاء صغيرة لا تزال تختلط به، يشكل وسادة لرأسها ويحمي عري كتفيها بضفائره، وكانت يداها الجميلتان اللتان كانتا أنقى وأصفى من المضيفين متشابكتين في وضع من الوقار والصلاة الخفية التي كانت تصحح كل ما كان يمكن أن يكون مغرياً جداً حتى في الموت؛ واستدارة ذراعيها العاريتين الرائعتين وصقلهما العاجي، اللتين لم تكن أساور اللؤلؤ قد نزعت عنهما .

وظللت لوقت طويل مستغرقاً في التأمل الصامت، وكلما أمعنت النظر إليها كلما قل تصديقي بأن الحياة قد هجرت هذا الجسد الجميل إلى الأبد. لا أدري هل كان ذلك وهماً أم انعكاساً للمصباح، ولكن بدا لي كما لو أن الدم بدأ يدور من جديد تحت ذلك الشحوب اللامع، ومع ذلك كانت لا تزال ساكنة تماماً. لمست ذراعها بخفة؛ كانت باردة، لكنها لم تكن أبرد من يدها يوم لمست يدي تحت بوابة الكنيسة. استأنفتُ وضعي ومضيتُ في مكاني مائلاً بوجهي على وجهها تاركاً الندى الدافئ من دموعي تنهمر على خديها. آه، يا له من شعور مرير باليأس والعجز، ويا له من عذاب تلك السهرات، وددت لو استطعت أن أجمع حياتي في كومة لأعطيها لها وأن أنفث فوق جسدها المتجمد اللهب الذي كان يلتهمني. وكان الليل قد أقبل، ولما أحسست

باقتراب لحظة الفراق الأبدي لم أستطع أن أحرم نفسي من اللذة الحزينة والعذوبة الفائقة في أن أضع قبلة على شفتي المرأة الميتة التي كانت تحمل كل حبي. واختلطت أنفاسي الخفيفة بأنفاس زكية واستجاب فم كلاريموند لضغط أنفاسي: فتحت عينيها واستعادت بريقاً خفيفاً، وتنهدت ثم رفعت ذراعيها ومررتهما خلف عنقي ببهجة لا توصف. "آه، إنه أنت يا روموله قالت بصوت رقيق وعذب كآخر ذبذبات القيثارة؛ ماذا تفعل؟ لقد انتظرتك طويلاً حتى مت؛ ولكننا الآن مخطوبان وسأتمكن من رؤيتك والذهاب إلى منزلك. الوداع يا روموله، الوداع، أنا أحبك؛ هذا كل ما أردت أن أقوله لك، وأعيد إليك الحياة التي أعدتها إليّ بقبلتك؛ أراك قريباً."

وتراجع رأسها إلى الوراء، ولكنها ظلت تلف ذراعيها حولي كما لو كانت تريد أن تمسك بي. وكانت آخر ورقة من الوردة البيضاء ترفرف للحظة كجناح في نهاية الساق، ثم انكسرت وطارت من النافذة المفتوحة، حاملة معها روح كلاريموند. وعندما أفقت كنت مستلقياً على سريري في غرفتي الصغيرة في بيت القسيس، وكان كلب الكاهن العجوز يلعق يدي التي كانت ممدودة من البطانية. وكانت باربرا تتململ في الغرفة برعشة الشيخوخة، تفتح الأدراج وتغلقها وتقلب المساحيق في الكؤوس. وعندما رأتني العجوز وأنا أفتح

عينيّ أطلقت صرخة فرح، ونبح الكلب وهزّ ذيله، ولكنني كنت ضعيفاً جداً لدرجة أنني لم أستطع أن أنطق بكلمة واحدة أو أقوم بحركة واحدة. وقد علمت بعد ذلك أنني بقيت هكذا لمدة ثلاثة أيام، لا أعطي أي علامة على وجودي سوى التنفس الذي يكاد يكون غير محسوس .

لا تُحسب تلك الأيام الثلاثة في حياتي، ولا أعرف أين كان ذهني طوال تلك المدة؛ فأنا لا أتذكرها. وأخبرتني باربرا أن نفس الرجل ذي البشرة النحاسية الذي جاء ليأخذني أثناء الليل قد أعادني في الصباح في نقالة مغلقة وعاد في الحال. وما إن استطعت أن أستعيد أفكاري حتى استرجعت في ذهني كل ملابسات تلك الليلة القاتلة. في البداية ظننت أنني كنت ضحية وهم سحري؛ ولكن سرعان ما دحضت الظروف الحقيقية والملموسة هذا الافتراض. لم أصدق أنني كنت أحلم، لأن باربرا كانت قد رأت الرجل مع الحصانين الأسودين كما رأيت، ووصفت هيئته ومظهره بدقة.

على أنه لم يكن أحد في المنطقة المجاورة يعرف قلعة يمكن أن ينطبق عليها وصف القلعة التي وجدت فيها كلاريموند. وفي صباح أحد الأيام رأيت الأب سيرابيون يدخل .

كانت باربرا قد أخبرته بأنني مريض، فأسرع إلى هنا. وعلى الرغم من أن لهفته أظهرت مودته واهتمامه بي، إلا أن زيارته لم تبعث في نفسي السرور الذي كان ينبغي أن تبعثه. كان في نظرات الأب سيرابيون شيء ثاقب وفضولي في نظراته أزعجني. شعرت بالحرج والذنب أمامه. كان هو أول من اكتشف اضطرابي الداخلي، فامتعضت من استبصاره، وبينما كان يسألني عن صحتي بلهجة معسولة مرائية، ثبت عينيّ الأسدين الصفراوين في وجهي وغرس نظراته في روحي كالمسبار. ثم سألني بضعة أسئلة عن الطريقة التي أدير بها رعيتي، وما إذا كنت أستمتع بها، وماذا أفعل في الوقت الذي تتركه لي خدمتي متفرغاً، وما إذا كنت قد تعرفت على أحد من السكان المحليين، وما هي قراءاتي المفضلة، وألف تفصيل آخر مماثل. أجبته عن كل هذا بإيجاز قدر الإمكان، فانتقل إلى أمور أخرى دون أن ينتظرني حتى أنتهي. من الواضح أن هذا الحديث لم يكن له علاقة بما أراد أن يقوله. ثم، وبدون أي تحضير من أي نوع، وكأنه خبر تذكره للتو ويخشى أن ينساه فيما بعد، قال لي بصوت واضح نابض بالحياة دوّى في أذني مثل أبواق القيامة:

"ماتت المحظية العظيمة كلاريموند مؤخراً، بعد عربدة استمرت ثمانية أيام وثماني ليالٍ. لقد كان شيئًا فائق الروعة. لقد تكررت فظائع أعياد "بالتزار"

و"كليوباترا". يا له من قرن نعيش فيه! كان يقوم بخدمة الضيوف عبيد سمر البشرة يتكلمون لغة غير معروفة ويبدون لي كشياطين حقيقيين؛ وكان أقلهم لباساً يمكن أن يكون بمثابة حفل لإمبراطور. لطالما كانت هناك قصص غريبة جداً عن كلاريموند هذه، وقد انتهى كل عشاقها إلى البؤس أو العنف. قالوا إنها كانت غولا، أو مصاصة دماء أنثى، ولكني أعتقد أنها كانت بعلزبول نفسه. وسكت ونظر إليّ بتمعن أكثر من أي وقت مضى ليرى الأثر الذي تركته كلماته في نفسي. ولم أتمالك نفسي من الحركة عندما سمعت اسم كلاريموند، وهذا الخبر بموتها، بصرف النظر عن الألم الذي سببه لي بتزامنه الغريب مع المشهد الليلي الذي شهدته، قد ألقى بي في حالة من الارتباك والخوف ظهرت على وجهي مهما فعلت لأسيطر عليها .

رمقني سيرابيون بنظرة قلقة صارمة، ثم قال لي: "يا بني، يجب أن أحذرك، لقد رفعت قدمك إلى هاوية فاحذر أن تسقط فيها. إن للشيطان مخلباً طويلاً، والقبور ليست دائماً أمينة. يجب أن يختم على حجر كلاريموند بختم ثلاثي، لأن هذه ليست كما يقولون أول مرة تموت فيها. فليحفظك الله يا روملد!"

بعد أن قال هذه الكلمات، سار سيرابيون ببطء عائدًا إلى الباب، ولم أره مرة أخرى، لأنه غادر إلى س*** في الحال تقريبًا.

كنت قد تعافيت تماماً واستأنفت مهامي المعتادة. وكانت ذكرى كلاريموند وكلمات رئيس الدير العجوز حاضرة دائماً في ذهني؛ ولكن لم يكن قد حدث حدثٌ غير عادي يؤكد تنبؤات سيرابيون الرهيبة، وكنت قد بدأت أعتقد أن مخاوفه ومخاوفي مبالغ فيها؛. ولكن ذات ليلة حلمت حلماً، فما كدت أشرب رشفات النوم الأولى حتى سمعت ستائر سريري تنفتح، والحلقات تنزلق على القضبان مع ضجة عالية. تعرفت على كلاريموند في الحال. كانت تحمل في يدها مصباحاً صغيراً كذلك الذي يضعونه في المقابر، وكان وهج المصباح يعطي أصابعها النحيلة شفافية وردية اللون تمتد بانحطاط لا يدركه الحس إلى البياض الحليبي المعتم لذراعها العارية. وكان ثوبها الوحيد هو ذلك الكفن الكتاني الذي كان يغطيها على سرير العرض، وقد ضمت طياته إلى صدرها كأنما خجلت من أن تكون بهذا البياض الشحيح، ولكن يدها الصغيرة لم تكن كافية؛ فقد كانت بيضاء إلى درجة أن لون الثوب امتزج بلون اللحم تحت شعاع المصباح الشاحب .

وبدت وهي ملفوفة في هذا القماش الناعم الذي كان يخفي كل تقاسيم جسمها أشبه بتمثال رخامي لحمام قديم منها بامرأة وهبت الحياة. ميتة أو حية، تمثالاً كانت أو امرأة، ظلاً أو جسداً، كان جمالها كما هو دائماً؛ فقط

كان بريق عينيها الخضراوين قد خفت قليلاً، وفمها الذي كان أحمر اللون في يوم من الأيام، لم يعد الآن إلا ورديا باهتاً رقيقاً خافتاً يشبه لون خديها تقريباً. وكانت الزهور الزرقاء الصغيرة التي لاحظتها في شعرها قد جفّت تماماً وفقدت كل أوراقها تقريباً؛ ولكن هذا لم يمنعها من أن تكون فاتنة، فاتنة إلى درجة أنني لم أشعر بالخوف للحظة رغم فرادة المغامرة والطريقة غير المفهومة التي دخلت بها الغرفة.

ووضعت المصباح على المنضدة وجلست على قدم سريري، ثم قالت لي وهي تميل نحوي بذلك الصوت الفضي المخملي الذي لم أسمعه إلا منها: (لقد أبقيتك منتظراً يا عزيزي رومولد، ولا بد أنك ظننت أني نسيتك.)

ولكني جئت من مكان بعيد، ومن مكان لم يعد منه أحد حتى الآن: لا قمر ولا شمس في الأرض التي جئت منها؛ ليس في الأرض التي جئت منها إلا الفضاء والظل؛ لا طريق ولا أثر؛ لا أرض للقدم ولا هواء للجناح؛ ومع ذلك ها أنا ذا، لأن الحب أقوى من الموت، وسيقهره في النهاية. آه، يا لها من وجوه كئيبة وأشياء رهيبة رأيتها في رحلتي! كم كان على روحي التي جئت بها إلى هذا العالم بقوة الإرادة أن تتعب حتى تجد جسدها وتستقر فيه !

كم كان عليَّ أن أبذل من جهد قبل أن أتمكن من رفع اللوح الذي غُطيت به! إن أحشاء يداي المسكينة مكدومة من الداخل! قبّليهما لتداويهما يا حبيبتي العزيزة! فوضعت كفي يديها الباردتين على فمي واحدة بعد الأخرى؛ فقبلتهما عدة مرات، وهي تراقبني وأنا أفعل ذلك بابتسامة من الدلال لا توصف، وأعترف بخجلي أنني نسيت تماماً نصيحة الأب سيرابيون وشخصيتي. كنت قد سقطت دون مقاومة وعند أول هجوم. ولم أحاول حتى أن أقاوم المغري؛ لقد تغلغلت برودة جلد كلاريموند في كامل جسمي، وشعرت برعشة حسية تسري في جسدي .

يا للطفلة المسكينة؛ وعلى الرغم من كل ما رأيته منها ما زلت أجد صعوبة في تصديق أنها شيطانة؛ على الأقل لم تكن تبدو كذلك، ولم يخف الشيطان مخالبه وقرونه أفضل منها. كانت قد دسّت كعبيها تحتها وكانت رابضة على حافة السرير في وضع من اللامبالاة.

وكانت من وقت لآخر تمرر يدها الصغيرة بين الحين والآخر على شعري وتلفه في تجعيدات كما لو كانت تجرب تسريحات جديدة على وجهي. وكنت أسمح لها أن تفعل ذلك برضا تامّ، وكانت تصحب كل ذلك بأجمل الثرثرة الساحرة. وكان الشيء العجيب أنني لم أشعر بأي دهشة من هذه المغامرة غير العادية،

وبالسهولة التي يتقبل بها المرء في الرؤيا أكثر الأحداث غرابة على أنها بسيطة جداً، ولم أر فيها إلا طبيعية تماماً. لقد أحببتك قبل أن أراك يا عزيزي روملد بوقت طويل، وبحثت عنك في كل مكان .

لقد كنتَ حلمي ورأيتك في الكنيسة في اللحظة القاتلة، وقلت في الحال: "إنه هو!" لقد رمقتك بنظرة وضعت فيها كل الحب الذي كان لي أو كان لي أو كان يجب أن يكون لك؛ نظرة تلعن كاردينالاً، وتجعل ملكاً يركع عند قدمي أمام بلاطه كله. آه، كم أنا غيورة من الله الذي أحببته وما زلت تحبه أكثر مني، تعيسة، تعيسة أنا، لن أحظى بقلبك كله لنفسي، أنا التي أحييتها بقبلة، كلاريموند الميتة التي من أجلك تفتح أبواب القبر عنوة وتأتي لتكرس لك حياة ما رفعتها إلا لتجعلك سعيدة! "كل هذه الكلمات كانت تتخللها مداعبات هذيانية أذهلت حواسي وعقلي حتى أنني لم أخش أن أواسيها بالتلفظ بكفر فظيع، ولأقول لها إنني أحبها كما أحب الله.

انتعشت عيناها وأشرقتا مثل زهرتين جميلتين. قالت، وهي تلف ذراعيها الجميلتين حولي : "صدقت، صدقت كما قال الله .

إذا كان الأمر كذلك، ستأتي معي، ستتبعني حيثما أريد. ستترك ملابسك السوداء القبيحة ورائك. ستكون أكثر الفرسان فخرًا وأكثرهم حسدًا، ستكون

حبيبي. أن تكون العاشق المعلن لكلاريموند التي رفضت البابا، هذا جميل! آه! الحياة الطيبة السعيدة التي سنعيشها، الحياة الذهبية الجميلة! غداً! غداً!" هتفتُ في هذيان.

-لا بأس بالغد". سيكون لديّ وقت لتغيير ملابسي، لأن هذه الملابس رديئة بعض الشيء ولا تساوي شيئًا للرحلة. يجب أن أذهب أيضًا لأخبر أهلي الذين يعتقدون أنني ميتة حقًا، والذين يبذلون كل ما في وسعهم للتخلص مني. إن المال والملابس والعربات وكل شيء سيكون جاهزاً، وسآتي لأخذك في هذا الوقت .

إلى اللقاء يا عزيزي. ولمست جبهتي بطرف شفتيها. وانطفأ المصباح، وأغلقت الستائر، ولم أر شيئاً آخر؛ وغلبني نوم.

كنتُ وسيماً، وكان غروري مدغدغاً بشكل ملموس بهذا التحول. لقد جعلتني هذه الملابس الأنيقة، وهذه السترة الغنية المطرزة، شخصاً مختلفاً تماماً، وأعجبت بقوة بضع أونصات من القماش المقطوع بطريقة معينة. تغلغلت روح الزي في جلدي، وبعد عشر دقائق أصبحت بديناً تماماً، وأخذت أدور حول الغرفة لأرتاح قليلاً. نظرت كلاريموند إليّ برضا أمومي وبدت مسرورة جداً بعملها. "كفانا صبيانية؛ لنذهب يا عزيزي روملد !

سنقطع طريقاً طويلاً ولن ننجح في الوصول. أخذت بيدي وقادتني على طول الطريق. وانفتحت جميع الأبواب أمامها بمجرد أن لمستها، ومررنا بالكلب دون أن نوقظه، وعند الباب وجدنا مارغريتوني، وكان المرافق هو الذي سبقني؛ وكان يحمل ثلاثة خيول سوداء مثل الخيول الأولى، واحد لي وواحد له وواحد لكلاريموند. ولا بد أن هذه الخيول كانت خيولاً إسبانية ولدت من أفراس لقحها الزفير؛ لأنها كانت تسير بسرعة الريح، والقمر الذي كان قد أشرق حين غادرنا ليمنحنا الضوء، كان يدور في السماء كعجلة انفصلت عن مركبتها؛ ورأيناه على يميننا يقفز من شجرة إلى شجرة ويجري من شدة الجري ليطاردنا. وما لبثنا أن وصلنا إلى سهل حيث كانت تنتظرنا عربة على متنها أربعة دواب قوية بجوار بستان من الأشجار .

كنت أضع إحدى ذراعي حول خصر كلاريموند و إحدى يديها مطوية في يدي؛ وكانت هي تميل برأسها على كتفي وشعرت بحلقها شبه العاري يلامس ذراعي. لم أشعر بمثل هذه السعادة الشديدة من قبل. كنت قد نسيت كل شيء في تلك اللحظة، ولم أعد أذكر أنني كنت كاهناً أكثر مما كنت أتذكر ما فعلته في رحم أمي، فقد كان السحر الذي كان يمارسه الروح الشرير عليَّ عظيماً

جداً. ومنذ تلك الليلة فصاعدًا انقسمت طبيعتي إلى قسمين كما كانت، وكان فيَّ رجلان لا يعرف أحدهما الآخر .

فكنت أظن أحياناً أنني كاهن أحلم كل ليلة أنه رجل نبيل، وأحياناً رجل نبيل يحلم أنه كاهن. ولم أعد أستطيع أن أميز الحلم من الليلة التي قبلها، ولم أعد أعرف أين تبدأ الحقيقة وأين ينتهي الوهم.

سخر السيد الشاب السمين المتحرر من الكاهن، وكره الكاهن انحلال السيد الشاب. حلزونان متشابكان في بعضهما البعض ويندمجان دون أن يتلامسا أبدًا يمثلان جيدًا هذه الحياة ذات الرأسين. وعلى الرغم من غرابة هذا الموقف، لا أعتقد أنني أصبت بالجنون أبدًا. لقد حافظت دائمًا على تصوراتي لحياتي الاثنتين واضحة جدًا. ومع ذلك فقد كانت هناك حقيقة سخيفة لم أستطع أن أفسرها لنفسي: وهي أن الشعور بالذات الواحدة كان موجوداً في رجلين مختلفين كل الاختلاف. لقد كان ذلك شذوذاً لم أكن أدركه، سواء ظننت أنني كاهن الرعية في قرية *** الصغيرة، أو أنني كنت كاهن قرية صغيرة في البندقية أو إيل سينيور رومالدو عشيق كلاريموند. وتبقى الحقيقة أنني كنت، أو على الأقل ظننت أنني كنت في البندقية؛ ولم أستطع حتى الآن أن أفهم بالضبط ما كان وهماً وما كان حقيقة في هذه المغامرة العجيبة. كنا

نعيش في قصر عظيم من الرخام على نهر كانواليو، مليء باللوحات الجدارية والتماثيل، مع لوحتين من أفضل ما يكون من لوحات تيتيان في غرفة نوم كلاريموند، قصر يليق بملك. وكان لكل منا جندول خاص به، وكسوة خاصة به، وغرفة موسيقى خاصة به، وشاعر خاص به. كان لكلاريموند فهم عظيم للحياة، وكان في طبيعتها لمسة من كليوباترا. أما أنا فكنت أشبه ابن أمير، وكنت مغبراً كما لو كنت منتسباً إلى أحد الحواريين الاثني عشر أو المبشرين الأربعة بجمهورية سيرينيسيما؛ وما كنت لألتفت جانباً لأدع الدوق يمر ولا أظن أن أحداً منذ هبط إبليس من السماء كان أكثر مني كبرياء أو وقاحة .

لقد كنت أذهب إلى الريدوتو تلك القاعة الخاصة الرهيبة وألعب لعبة من الجحيم. لقد رأيت أفضل مجتمع في العالم، أبناء العائلات المدمرة، ونساء المسرح، والمحتالين، والطفيليين، والمُتطفلين والمُتطفلات .

ومع ذلك، وعلى الرغم من تبدد هذه الحياة، بقيت مخلصاً لكلاريموند. أحببتها بجنون. كان حبا من شأنه أن يوقظ الشبع نفسه ويثبت عدم الثبات. أن يكون لديك كلاريموند كان يعني أن يكون لديك عشرون عشيقة، كان

يعني أن يكون لديك كل امرأة، كانت متغيرة ومتقلبة ومختلفة؛ كانت حرباء حقيقية !

كانت تجعلك ترتكب معها نفس الخيانة التي كنت سترتكبها مع غيرها، وذلك بأن تتقمص شخصية المرأة التي كنت تحبها، وتتخذ طابعها وجاذبيتها وجمالها. لقد بادلتني حبها مائة ضعف، وكان من العبث أن يتقدم إليها شباب الأرستقراطيين وحتى أعضاء مجلس العشرة الكبار بأروع العروض. حتى أن أحد أبناء عائلة فوسكاري الشهيرة ذهب إلى حد عرض الزواج منها؛ ولكنها رفضت كل شيء. لقد كان لديها ما يكفيها من الذهب؛ وكان كل ما تريده هو الحب، حب شاب نقي أيقظها من سباتها، وكان يجب أن يكون الأول والأخير .

ولولا كابوس ملعون كان يعاودني كل ليلة كنت سأكون سعيداً كل السعادة، كنت أظن فيه أنني كاهن قرية أتدنس وأكفّر عن تجاوزاتي في النهار. لقد كنت مطمئناً إلى هذه العادة التي اعتدت أن أكون معها، فلم أفكر مرة في الطريقة الغريبة التي تعرفت بها إلى كلاريموند. لم تكن صحة كلاريموند منذ بعض الوقت على ما يرام، فقد كانت بشرتها تتلاشى يوماً بعد يوم. ولم يكن الأطباء الذين استدعيت إليهم لم يفهموا شيئاً من مرضها، ولم يعرفوا

ماذا يفعلون حيال ذلك. فوصفوا لها بعض العلاجات التافهة ولم يعودوا إليها. ومع ذلك، فقد شحب لونها بشكل واضح وازدادت برودة أكثر فأكثر. لقد كانت بيضاء كبياضها وميتة كتلك الليلة المشهورة في القلعة المجهولة. كنت آسفاً لرؤيتها تتلاشى ببطء. وكانت، وقد تأثرت بألمي، تبتسم لي بلطف وحزن ابتسامة قاتلة كابتسامة من يعلمون أنهم سيموتون. ذات صباح كنت جالسًا بجانب سريرها، أتناول الفطور على طاولة صغيرة حتى لا أفارقها لدقيقة واحدة. قطعتُ قطعة من الفاكهة، فأحدثت عن طريق الخطأ جرحًا غائرًا إلى حد ما في إصبعي. سالت الدماء على الفور في تيارات قرمزية، وتناثرت بضع قطرات على كلاريموند .

أضاءت عيناها وارتسمت على وجهها تعابير الفرح الوحشي الشرس الذي لم أره من قبل. قفزت من على السرير بخفة حيوانية، خفة قرد أو قطة، وهرعت إلى جرحي الذي بدأت تمصه في سعادة لا توصف. كانت تبتلع الدم في جرعات صغيرة، ببطء وتأنٍّ، مثل ذواقة تتذوق نبيذا معتقا أو نبيذ سيراكيوز؛ وكانت تغمض عينيها في منتصف الطريق، وقد أصبحت حدقتا عينيها الخضراوان مستطيلتين بدلاً من مستديرتين. وكانت تتوقف من وقت لآخر لتقبّل يدي، ثم تبدأ من جديد، وتضغط بشفتيها على الجرح لتعتصر بضع

قطرات أخرى من الدم الأحمر. وعندما رأت أن الدم قد توقف عن النزول، وقفت وعيناها رطبتان ومشرقتان، أكثر وروداً من فجر مايو، ووجهها ممتلئ، ويدها دافئة متلبدة، وهي أجمل من أي وقت مضى وفي حالة صحية ممتازة. قالت وهي شبه مجنونة من الفرح، وهي متعلقة بعنقي: (لن أموت! لن أموت!) قالت وهي شبه مجنونة من الفرح: (سأكون قادرة على حبك لفترة طويلة قادمة. حياتي في حياتك، وكل ما أنا عليه هو أنت. إن بضع قطرات من دمك الغني والنبيل، أثمن وأنجع من كل إكسير في العالم، قد أعادت إليّ حياتي. شغلني هذا المشهد طويلاً وأوحى إليّ بشكوك غريبة عن كلاريموند، وفي مساء اليوم نفسه، عندما أعادني النوم إلى كنيستي رأيت الأب سيرابيون أكثر جدية وأكثر قلقاً من أي وقت مضى .

فنظر إليّ باهتمام وقال: "لا تكتفي بفقدان روحك، بل تريد أن تفقد جسدك أيضاً. أيها الشاب التعيس، يا له من فخ وقعت فيه! إن النبرة التي قال بها هذه الكلمات القليلة قد أذهلتني بشدة، ولكن على الرغم من حيويته سرعان ما تبدد هذا الانطباع، ومحت ألف فكرة أخرى من ذهني.

غير أني رأيت كلاريموند ذات مساء في مرآتي ذات مرآة لم تكن قد حسبت لها حساباً في موقفها الغادر، وهي تصب مسحوقاً في كأس النبيذ المتبل

الذي اعتادت أن تعده بعد الطعام. فأخذت الكأس وتظاهرت بأنني أضع شفتيّ عليه، ثم وضعته على قطعة من الأثاث كما لو كنت سأنهيه فيما بعد في وقت فراغي، ثم انتهزت لحظة أدارت فيها المرأة الجميلة ظهرها فألقيت محتوياته تحت المنضدة؛ ثم عدت إلى غرفتي وأويت إلى فراشي عازماً على ألا أنام وأن أرى ما سيحدث بعد ذلك كله. ولم أنتظر طويلاً؛ فقد دخلت كلاريموند في ثوب النوم، وبعد أن تخلصت من نقابها استلقت في السرير بجانبي. ولما تأكدت من نومي، كشفت عن ذراعي وسحبت دبوساً ذهبياً من رأسها؛ ثم همست بصوت منخفض: (قطرة، قطرة حمراء صغيرة، قطرة ياقوتة في نهاية إبرتي! بما أنك ما زلت تحبني، يجب ألا أموت...)

آه، يا حبي المسكين، سأشرب دمك الأرجواني الجميل. نم يا حبيبي الوحيد، نم يا إلهي يا طفلي، لن أؤذيكِ، سآخذ من حياتكِ بقدر ما يتطلبه الأمر لإبقاء حياتي. لو لم أكن أحبك كل هذا الحب، لعزمت على أن يكون لي عشاق آخرون أجفف عروقهم؛ ولكني منذ عرفتك وأنا أبغض كل من أراه... آه! الذراع الجميلة !

كم هو مستدير! كم هو أبيض! لن أجرؤ أبداً على وخز ذلك الوريد الأزرق الجميل .

وبينما كانت تقول ذلك كانت تبكي، وكنت أشعر بدموعها تنهمر على ذراعي التي كانت تمسكها بيديها. وأخيرًا حسمت أمرها وأعطتني وخزة صغيرة بإبرتها وبدأت في ضخ الدم. وعلى الرغم من أنها بالكاد شربت بضع قطرات، إلا أنها كانت خائفة من أن ترهقني، لذلك قامت بلف ضمادة صغيرة حول ذراعي بعناية بعد أن دلكت الجرح بمرهم شفاه على الفور. لم يعد لدي أي شكوك أخرى، فقد كان الأب سيرابيون على حق. ومع ذلك، وعلى الرغم من هذا اليقين، لم أستطع أن أمنع نفسي من حب كلاريموند، وكنت على استعداد لأن أعطيها بكل سرور كل ما تحتاجه من الدم لدعم وجودها الوهمي. و إلى جانب ذلك لم أكن خائفاً جداً؛ فقد أخبرتني المرأة عن مصاص الدماء، وما سمعته ورأيته طمأنني تماماً؛ فقد كانت لدي عروق خصبة لن تنضب قريباً، ولم أكن أراهن على حياتي قطرة قطرة. وكنت أود أن أفتح ذراعي بنفسي وأقول لها: (اشربي، ودعي حبي يسري في عروقك مع دمي !

وتحاشيتُ أن أشير أدنى إشارة إلى المخدّر الذي سكبته في جسدي و إلى مشهد الإبرة، وعشنا في وئام تام. ومع ذلك فقد عذبني وازعي الكهنوتي

أكثر من أي وقت مضى، ولم أعرف ما هو النقع الجديد الذي يجب أن أخترعه لإخضاع جسدي و إماتته. ومع أن كل هذه الرؤى كانت لا إرادية ولا علاقة لي بها، إلا أنني لم أجرؤ أن ألمس المسيح بهذه الأيدي النجسة والعقل الملوث بمثل هذه الفواحش، حقيقية كانت أم أضغاث أحلام. ولكي أتفادى السقوط في هذه الهلوسات المتعبة حاولت أن أمنع نفسي من النوم، فكنت أفتح جفوني بأصابعي وأمسكها بأصابعي وأظل واقفاً على طول الجدران أقاوم النوم بكل قوتي، ولكن سرعان ما تدحرجت رمال النعاس إلى عيني، ولما رأيت أن كل مقاومة لا فائدة منها ألقيت ذراعي في تثبيط و إرهاق، وجذبني التيار إلى الضفاف الغادرة. وكان سيرابيون يحثني بشدة ويعاتبني بقسوة على كسلي وقلة حماستي. وذات يوم، عندما كنت أكثر اضطراباً من المعتاد، قال لي: "لتخليص نفسك من هذا الوسواس هناك طريقة واحدة فقط، ومع أنها متطرفة إلا أنه يجب استعمالها: إن الشرور العظيمة تستدعي علاجات عظيمة. أنا أعرف أين دفنت كلاريموند؛ يجب أن ننبشها ويجب أن ترى في أي حالة يرثى لها موضوع حبك؛ ولن يغريك بعد ذلك أن تفقد روحك من أجل جثة كريهة ينهشها الدود وتتهيأ للسقوط في البارود؛ وهذا بالتأكيد سيجعلك تعود إلى نفسك". أما أنا، فقد سئمت من هذه الحياة المزدوجة إلى

درجة أنني وافقت على ذلك: إذ كنت أريد أن أعرف، مرة واحدة و إلى الأبد، أيهما كان الكاهن أو السيد النبيل مغرورًا بالوهم، فعزمت على قتل أحد الرجلين اللذين بداخلي لصالح أحدهما أو الآخر، أو قتلهما معًا، لأن مثل هذه الحياة لا يمكن أن تدوم. جهز الأب سيرابيون نفسه بمعول وعتلة وفانوس، وعند منتصف الليل توجهنا إلى مقبرة *** التي كان يعرف موقعها وتخطيطها جيداً. بعد تسليط ضوء الفانوس الخافت على نقوش عدة مقابر، وصلنا أخيرًا إلى حجر نصفه مخفي بالأعشاب الطويلة ومغطى بالطحالب والنباتات الطفيلية، حيث فككنا شفرة بداية نقش: "هنا ترقد كلاريموند التي كانت ذات يوم أجمل امرأة في العالم".

.....

قال سيرابيون: "ها هو ذا"، ثم وضع فانوسه جانبًا وألقى الفأس في الفجوة الموجودة في الحجر وبدأ في رفعه. انخلع الحجر وبدأ في العمل بالمعول. كنت أراقبه وهو يفعل ذلك وهو أكثر سواداً وهدوءاً من الليل نفسه؛ أما هو فقد كان منحنياً على عمله الجنائزي يتصبب عرقاً، وكان يلهث، وصوت أنفاسه المتلاحقة كخشخشة الموت لرجل يحتضر. كان منظرًا غريبًا، ومن رآنا من الخارج كان يفضّل أن يحسبنا من المدنسين وسارقي الأكفان على أن

يحسبنا من كهنة الله. كان هناك شيء من القسوة والوحشية في حماسة سيرابيون جعلته يبدو كشيطان أكثر من كونه رسولاً أو ملاكاً، ولم يكن هناك ما يبعث على الاطمئنان في وجهه بملامحه الكبيرة المتقشفة التي قطعها بعمق انعكاس الفانوس. شعرت بتصبب عرق بارد يتصبب على أطرافي ووقف شعري على رأسي بألم؛ وفي أعماقي اعتبرت تصرف سيرابيون، الصارم تدنيساً بغيضاً للمقدسات، وتمنيت لو أن من جانب السحب الداكنة التي كانت تتدحرج فوقنا بكثافة يخرج مثلث من النار ويحولها إلى بارود. وكانت البوم الجاثمة على أشجار السرو، وقد أفزعها سطوع الفانوس، تضرب الزجاج بأجنحتها المغبرة ضرباً شديداً، وتطلق أنيناً حزيناً؛ وكانت الثعالب تعوي من بعيد، وكان الصمت يبعث ألف صوت شرير. وأخيراً ضرب معول سيرابيون التابوت بمعوله، فارتجت ألواحه بجلبة مع ذلك الصوت الرهيب الذي يصدره العدم حين تلمسه؛ وقلب الغطاء فرأيت كلاريموند شاحبة كالرخام وقد شبكت يديها ببعضهما؛ وكان كفنها الأبيض مطوياً من رأسها إلى قدميها. وكانت قطرة حمراء صغيرة تلمع كالوردة في زاوية فمها. تغير لونه. طار سيرابيون غاضباً من المنظر: "آه، ها أنت ذا أيتها الشيطانة المومس الوقحة شاربة الدم والذهب!" ورش الماء المقدس على الجثة

والتابوت الذي رسم عليه شكل صليب بفرشاته. وما كادت كلاريموند المسكينة أن يمسها الندى المقدس حتى تحول جسدها الجميل إلى تراب وأصبح خليطاً مروعاً لا شكل له من الرماد والعظام نصف المحترقة. قال الكاهن الذي لا يرحم وهو يريني هذه البقايا الحزينة: (ها هي ذي عشيقتك يا مولاي روملد)، (هل لا زلت تميل إلى التنزه في الليدو وفي فوسين مع جمالك؟ فَطَأْطَأْتُ رَأْسِي، فَقَدْ حَلَّ بِي خَرَابٌ عَظِيمٌ. وعدت إلى كهنوتي، وافترق اللورد روملد، عاشق كلاريموند، عن الكاهن المسكين الذي ظل يرافقه مدة طويلة في صحبة غريبة. وفي الليلة التالية فقط رأيت كلاريموند؛ فقالت لي كما قالت لي في المرة الأولى تحت باب الكنيسة: (بئس ما فعلت، بئس ما فعلت! لماذا استمعت إلى ذلك الكاهن الأحمق؟ (

وما الذي فعلته لك، لتنتهك قبري المسكين وتفضح شقاء عدمي؟ لقد انقطع الآن كل اتصال بين أرواحنا وأجسادنا. الوداع، ستفتقدني. واختفت في الهواء كالدخان، ولم أرها مرة أخرى. لقد اشتقت إليها أكثر من مرة وما زلت أشتاق إليها. لقد اشتريت سلام روحي بثمنٍ غالٍ، ولم يكن حب الله ليغني عن حبها .

تلك، يا أخي، قصة شبابي. لا تنظر إلى امرأة أبداً، وامش دائماً وعيناك مثبتتان على الأرض، لأنك مهما كنت عفيفاً وهادئاً لا تحتاج إلا إلى دقيقة واحدة لتخسر الأبدية.

السلسلة الذهبية

أو

الحبيب المشترك

في أيامها، كانت بلانغون الميليسيان واحدة من أكثر النساء أناقة في أثينا. وكانت حديث المدينة؛ فقد كان الأحبار والرؤساء والجنرالات والسادات والسادة الصغار والأرستقراطيين الصغار وأبناء العائلات، وكان الجميع مجنوناً بها. وكان جمالها الشبيه بجمال هيلين في حب باريس، يثير إعجاب ورغبات الشيوخ الكئيبين الذين كانوا يتحسرون على الأيام الخوالي. والواقع أنه لم يكن شيء أجمل من بلانغون، ولست أدري لماذا لم تغار فينوس التي كانت تغار من بسيشاي، من ميليسيان. ولعل الأكاليل الكثيرة من الورود وأشجار الليمون، وقرابين الحمائم والعصافير، و إراقة الخمر الكريتي التي قدمتها بلانغون إلى الإلهة المغناج قد صرفت غضبها وأوقفت انتقامها؛ والحقيقة أنه لم يكن أحد أسعد من بلانغون الميليسيان الملقبة بباسيفيلي.

فقط إزميل كليومينيس أو فرشاة أبيلس ابن إفرنور، يمكن أن تعطي فكرة عن الكمال البديع لأشكال بلانغون. من يستطيع أن يصف الخط البيضاوي الجميل لوجهه، وجبهته المنخفضة المصقولة كالعاج، وأنفه المستقيم، وفمه

المستدير الصغير، وذقنه المستدير، وخدوده ذات عظام الوجنتين المفلطحتين، وعينيه ذات الزوايا المستطيلة التي تلمع كنجمتين توأم بين جفنين ضيقين، تحت حاجبين مدببين بدقة عند الأطراف؟ إلى أي شيء يمكن أن تقارن أمواج شعرها الهلالية إن لم تكن إلى الذهب، ملك المعادن، وإلى الشمس، في الوقت الذي تغوص فيه صدور جيادها في رطوبة المحيط؟ أَيُّ امْرَأَةٍ بَشَرِيَّةٍ كَانَ لَهَا مِثْلُ هَذِهِ الْقَدَمَيْنِ الْكَامِلَتَيْنِ؟ إن ثيتيس نفسها التي أعطاها ميليسيغينس القديم لقب القدمين الفضيتين لا يمكن أن تقارن بصغر وبياض قدميها. لقد كانت ذراعاها مستديرتين ونقيتين مثل ذراعي هيبه، الآلهة ذات الذراعين من الثلج؛ والكأس التي تقدم فيها هيبه الأمبروزيا للآلهة كانت بمثابة قالب لحلقها، ويدَا داون التي كانت تتباهى بها كثيراً تشبهان إلى جوار يديها يدي عبد يعمل في أعمال شاقة.

ولن تعجب بعد هذا الوصف من أن عتبة بلانغون كانت أكثر عشقاً من مذبح للإلهة العظيمة؛ ففي كل ليلة كان العشاق الحزينون يأتون ليدهنوا عضادات الباب وعتبات الرخام بأثمن الطيب والعطور؛ ولم تكن إلا أكاليل مضفورة بشرائط ولفائف من البردي وألواح من الشمع عليها آيات ومراثي. وفي كل صباح كان لا بد من تنظيف الباب لفتحه كما يحدث في مناطق سكيثيا

عندما يسد الثلج الذي سقط أثناء الليل عتبات المنازل، وكان بلانغون في كل هذا الحشد يأخذ أغناها وأجملها ويفضل أجملها. وكان الأرشون يدوم ثمانية أيام، والبابا العظيم خمسة عشر يوماً، وكان يجب أن يكون ملكاً أو طاغية حتى ينتهي الشهر .

وبمجرد أن يشربوا ثرواتهم، كانوا يرمون من أكتافهم، عراة غير متأنقين كالفلاسفة الساخرين؛ لأن بلانغون، كما نسينا أن نذكر، لم تكن أمًا نبيلة عفيفة، ولا عذراء شابة ترقص البيباس وهو نوع من الرقصات الباخية عند الإسبارطيين، بل كانت مجرد جارية محررة تعمل كـ"هيتيرا" في مهرجانات ديانا، بل كانت ببساطة عبدة محررة تعمل كـ"هيتيرا."

وقد كانت بلانغون لبعض الوقت أقل انخراطًا في النظريات والمهرجانات العامة والمهرجانات التنزهية. ولم تعد تكرس نفسها لتخريب السلاطين بنفس الدأب، وكانت داريك فرنابازوس وأرتابان وتيسافيرنس قد دهشت لبقائها في خزائن أسيادهم. ولم تعد بلانغون تخرج إلا لتستحم، في محفة مغلقة محجبة بعناية كامرأة شريفة؛ ولم تعد بلانغون تخرج لتتعشى مع الشباب الفاسق وتغني تراتيل لباخوس أبي الفرح، مصاحبة نفسها على القيثارة. وكانت قد رفضت مؤخرًا دعوة من ألسيبيادس. وانتشر القلق بين

عجائب أثينا. ما هذا! بلانغون، بلانغون الجميلة، بلانغون محبوبتنا، معبودتنا، ملكة العربدة؛ بلانغون التي ترقص رقصاً رائعاً على أنغام الكروتالات، والتي تلوي جوانبها الفاتنة بمثل هذه الرشاقة والشهوة تحت نار مصابيح المهرجان، بلانغون بابتسامتها المتلألئة، ولباقتها اللاذعة؛ بلانغون ذات العين والزهرة ولؤلؤة الفتيات الطيبات؛ بلانغون ميليت، بلانغون التي ترتب نفسها بنفسها، ولا يكون لها في كل مرة إلا ثلاثة عشاق، وتلازم البيت وتصبح في عفافها كامرأة قبيحة! بحق هرقل! إنه لأمر عجيب، ويحير كل التخمينات! من الذي سيحدد النغمة؟ من الذي سيقرر الموضة؟ أيتها الآلهة الخالدة! من ذا الذي يستطيع أن يحل محل بلانغون الشابة، بلانغون المجنونة، بلانغون الساحرة؟ لقد كان أمراء أثينا الوسيمين يقولون هذا لبعضهم البعض وهم يتنزهون في بروبيليا أو يتكئون في لا مبالاة على الدرابزين الرخامي للأكروبوليس إن ما يدهشكم يا سادتي الأثينيين الأفاضل، يا سادتي الأعزاء بلحاهم المجعدة لأمر بسيط جداً؛ هو أنكم حملتم بلانغون من يسلّيكم؛ لقد سئمت من إعطائكم الحب والبهجة مقابل الذهب؛ إنها تخسر كثيراً في السوق؛ إن بلانغون لم تعد تريدكم. حتى لو أحضرت لها أطناناً من الدرياق والمواهب فإن بابها سيصم أذنيه عن

توسلاتك. ألسيبيادس، أكسيوكوس، كاليماخوس، أكثر رجال المدينة أناقة وشهرة لن يلبثوا إلا أن يتحولوا إلى اللون الأبيض .

إذا أردت محظيات فاذهب إلى أرخيناسا أو فلور أو لامي. بلانغون لم تعد محظية بل هي واقعة في الحب، واقعة في الحب ولكن مع من؟ نحن نعلم ذلك؛ فنحن دائماً على علم بحالة قلوب هؤلاء السيدات قبل ثمانية أيام من موعدها .

ألسنا نضع رؤوسنا على كل وسادة، ومرافقنا على كل مائدة؟ أيها السادة الأعزاء، إنها لا تحب أياً منكم، تأكدوا من ذلك؛ إنها تعرفكم جيداً. ولست أنت يا كليون المبدد؛ إنها تعرف جيداً أنك لا تهوى إلا كلاب لاكونيا والطفيليات والعازفين على الناي والخصيان والأقزام والببغاوات من الهند؛ ولا أنت يا هيبارخوس الذي لا تستطيع أن تتحدث عن شيء غير خيولك البيضاء الرباعية والجوائز التي فاز بها سواقك في الألعاب الأولمبية؛ إن بلانغون لا تحب كثيراً كل هذه التفاصيل المستقرة التي تسحرك. ولست أنت أيضاً يا ثراسيلاس المخنث؛ إن الطلاء الذي تصبغ به حاجبيك، وأحمر الخدود الذي يلصق خدودك، والزيت والعطور التي تغمر نفسك بها بلا رحمة، وكل هذه المراهم، وكل هذه المراهم التي تجعلك تتساءل عما إذا كان وجهك قرحة

أو وجهاً إنسانياً، لا تسر بلانغون كثيراً: إنها لا تكاد تكترث لكل ما تتحلى به من أناقة، ومن العبث أن ترش لحيتك الشقراء بمسحوق الذهب والترتر لكي ترضيها، وأن تترك أظافرك تنمو بإفراط، وأن تجر أكمام ثوبك الفارسي الطراز إلى الأرض. لم يكن تيمندري الباتريس البدين أو جلاوسيون الأحمق هو الذي فاز بقلب بلانغون.

أيها الممثلون المحبون للأناقة الأثينية، والشباب المنتصرون، والظافرون الساحرون، أقسم لكم أنكم لم تعشقوا بلانغون قط، وأستطيع أن أؤكد لكم أيضاً أن حبيبها ليس رياضياً أو قزماً أحدب أو فيلسوفاً أو زنجياً كما يلمح أكسيوكوس.

إنني أفهم أنه من المؤلم أن ترى أجمل فتاة في أثينا تعيش في عزلة كعذراء تستعد للدخول في أسرار إليوسيس، وأنه من الممل أن لا تعود تذهب إلى هذا البيت الذي كنت تقضي فيه الوقت بلذة لعب النرد والقمار وتراهن قرودك وعشيقاتك وبيوتك الريفية ونحوييك وشعرائك على بعضهم البعض. لقد كان من المبهج أن ترى النساء الأفريقيات النحيفات يرقصن بصنجاتهن الرشيقة، وأن تسمع جارية شابة تعزف على المزمار ذي المزمارين على

الطراز الأيوني، متوجة باللبلاب، مترامية على أسرة ذات أقدام عاجية، بينما تحتسي الخمر من قبرص مبردة في ثلج الهيميت .

ويسر بلانغون لا ميليسيان أن لا تعود امرأة عصرية؛ فقد عزمت على أن تعيش قليلاً لنفسها؛ فهي تريد أن تكون سعيدة أو حزينة، واقفة أو مستلقية كما تشاء. لقد أعطتك الكثير من حياتها. ولو أنها تستطيع أن تستعيد الابتسامات والكلمات الرقيقة والغمزات والقبلات التي أغدقتها عليك؛ ولو استطاعت أن تستعيد الابتسامات والكلمات الرقيقة والغمزات والقبلات التي أغدقتها عليك؛ ولو استطاعت أن تستعيد البريق في عينيها وبياض كتفيها واستدارة ذراعيها وذلك الموضوع العادي في أحاديثك.

ما الذي لا تود أن تبذله لتمحو ذكراها من ذهنك! كم كانت تتوق إلى أن تكون مجهولة بالنسبة لك! كم كانت تحسدك على مصير أولئك الفتيات المغمورات المسكينات اللاتي يزدهرن خجلاً في ظل أمهاتهن !

أشفق عليها، لقد كان حبها الأول. من ذلك اليوم فهمت العذرية والحياء لقد طردت فارنابازوس الساتراب العظيم، مع أنها لم تلتهم سوى مقاطعة واحدة، ورفضت كليباركوس الشاب الوسيم الذي ورثته لتوها؛ وقد ثارت كل الأزياء الأثينية من هذه الفضيلة الحقيرة المتوحشة. ويتساءل أكسيوكوس عما

سيحل بأبناء الأسرة وكيف سيذهبون إلى تدمير أنفسهم: يريد ألسيبيادس أن يشعل النار في البيت ويأخذ بلانغون بالقوة من التنين المغرور الذي يحتفظ بها لنفسه، وهو ادعاء باهظ؛ ويدعو كليون أن ينزل غضب فينوس بانديموس على كاهنته الخائنة؛ أما ثراسيبيلوس فقد بلغ به اليأس مبلغاً جعله لا يسرح شعره إلا مرتين في اليوم.

عشيق بلانغون طفل صغير وسيم لدرجة أنه يمكن أن يخطئ في تشبيهه بـ"صفير"، صديق أبولو : إن رشاقة إلهية ترافق كل حركاته، كصوت القيثارة؛ وشعره الأسود المجعد يتدلى في موجات لامعة على كتفيه، لامعاً أبيض كمرمر باروس، ويتدلى على وجهه الساحر كعناقيد العنب الناضجة؛ وثوب من أفخر الكتان مرتب حول خصره في طيات خفيفة مرنة، أما إبهام قدمه، وقد انفصل قليلاً عن أصابع قدميه الأخريين، فيذكرنا بأقدام الآلهة العاجية التي لم تطأ قط إلا زرقة السماء أو صوف السحاب الناعم.

إنه يتكئ على ظهر كرسي بلانغون. يقوم بلانغون بتزيين نفسه؛ ويمرر عبيد موريسكيون أمشاطاً من خشب البقس المسنن بدقة في شعره، بينما يجثو الأطفال الصغار على ركبهم ويلمعون كعبيه بحجر الخفاف، ويلمعون أظافره

بفركها بأسنان الذئب؛ وتلقى على جسده الجميل ستارة صوفية بيضاء بلا مبالاة، تشرب آخر اللآلئ التي تركتها النایاد المستحمّة تتدلى من ذراعيها. صناديق ذهبية وأطباق فضية وقوارير من الفضة وقوارير منقوشة من قبل كاليماخوس وميرون، موضوعة على طاولات من البورفيري الأفريقي، تحتوي على جميع الأدوات اللازمة لحمامها: عطور، ومراهم، ومكواة تجعيد الشعر، ودبابيس، ومساحيق مزيلة للشعر، ومقصات ذهبية صغيرة. وفي منتصف الغرفة، يوجد دولفين برونزي يمتطيه كيوبيد ينفخ من خلال منخريه الشائكين نفاثتين، إحداهما من الماء البارد والأخرى من الماء الساخن، في حوضين من المرمر الشرقي، حيث تغمس النساء المناوبات إسفنجاتهن الشقراء بالتناوب .

ومن خلال النوافذ، حيث يهب زفير خفيف يحرك الستائر الأرجوانية، يمكنك أن ترى سماء زرقاء لازوردية وقمم الدفلى الطويلة المزروعة عند سفح الجدار. تلتفت بلانغون رغم الملاحظات الخجولة لنسائها، على الرغم من خطر إسقاط صرح تسريحة شعرها المتقدم أصلاً من أعلى إلى أسفل، لتحتضن الطفل. إنها مجموعة من النعمة الرائعة التي تستدعي إزميل النحات. وا أسفاه! أتظن أن صديقاتك أرخيناسا وتايس وفلورا والأخريات

سيشقين إذا كنت سعيداة على الرغم منهن؟ إنك مخطئة يا بلانغون؛ فهذا الطفل الذي تودين أن تخفيه عن الجميع والذي تحتفظين به أسيرًا في حبك، سيفعلون كل ما في وسعهم ليأخذوه منك .

والله إنها لوقاحة منك يا بلانغون أن تريدي أن تكوني سعيدة على طريقتك الخاصة، وأن تجلبي للبلدة فضيحة الهوى الحقيقي.

فتقدمت جارية ترفع باباً من القماش على استحياء نحو بلانغون وهمست في أذنها أن لامي وأرشناسا قادمتان لزيارتها، وأنها لم تكن تسبقهما إلا بخطوات قليلة؛ فقالت بلانغون للطفل: (ابتعد يا صديقي؛ لا أريد أن تراك هاتان المرأتان؛ لا أريد أن تسرقا شيئاً من جمالك حتى نظرك؛ إنني أتألم بشدة عندما تنظر إليك امرأة. " فأطاع الطفل؛ ولكنه لم ينسحب بسرعة بحيث أن لامي التي دخلت في نفس اللحظة مع أرخيناسا، وألقت بنظراتها السامة جانباً، كان لديها الوقت الكافي لتراه وتتعرف عليه؛ مرحباً يا حمامتي الجميلة؛ وهذه الصحة العزيزة، كيف حالك؟ ولكنك تبدين في أحسن حال؛ من قال إنك أصبت بمرض شوهك وأنك لم تعودي تجرؤين على الخروج، فقد أصبحت قبيحة جداً؛ قالت لامي وهي تقبل بلانغون بمظاهر الفرح المبالغ فيها: (إن ثراسيلي هو الذي قال ذلك) قالت أرخيناسا: (وأنا أحثك على أن

تعاقبيه بأن تجعليه أكثر حباً لك مما هو عليه، وألا تمنحيه أدنى معروف. ولكن ماذا أقول لك، أنت تعيشين في عزلة كرجل حكيم يبحث عن نظام العالم. لم تعودي تهتمي بالأمور الدنيوية.

وتحررت بلانغون التي تحول وجهها من الشحوب إلى اللون القرمزي وكانت شفتاها ترتجفان من الغضب، من عناق حبيبها العاطفي وكررت الأمر القاسي.

ولما رأت أن كتسياس الغارق في الحزن لم يغير من وضعيته وظل جاثياً على ركبتيه، استدعت عبدين سكيثيين من السكيثيين، عملاقين بشعر أحمر وعينين جاحظتين، وقالت بإشارة متجبرة: "ألقوا لي هذا الرجل عند الباب". "فرفع العملاقان الطفل على ذراعيهما المشعرتين كما لو كان ريشة، وحملاه عبر ممرات مظلمة إلى السور الخارجي، ثم وضعاه برفق على قدميه؛ وعندما التفت كتسياس وجد نفسه وجهاً لوجه أمام باب أرز جميل مرصع بمسامير برونزية مقصوصة بدقة على شكل نقاط ماسية، ومرتبة بحيث تشكل تناسقاً ونماذج.

انقلبت دهشة كتسياس إلى أعنف ما يكون من الدهشة؛ فألقى بنفسه على الباب كالمجنون أو كالوحش الضاري؛ ولكن الأمر كان يحتاج إلى كبش

ضارب ليحطمه، وسرعان ما أصيب كتفه الأبيض الرقيق الذي احمرّ من قبلة امرأة طُبقت عليه بحماسة زائدة عن الحد، برضوض من المسامير ذات الستة جوانب ومن صلابة الأرز، فاضطر إلى التخلي عن محاولته.

وبدا له سلوك بلانغون وحشياً في نظره، وقد أغضبه إلى درجة أنه كان يزأر كالنمر الجريح، وينتزع حفنات كبيرة من الشعر بيديه المكدومتين. وأخيراً وفي النوبة الأخيرة من نوبة غضبه التقط عدداً من الحجارة ورمى بها منزل المضيفة مصوباً إياها أساساً إلى فتحات النوافذ، واعداً نفسه بمائة بقرة سوداء للآلهة الجهنمية إذا أصاب أحد هذه الحجارة صدغ بلانغون.

وكان عنتيروس قد اخترق قلبه بسهم من سهامه الرصاصية، وكره من أحبها أكثر من الموت: أثر عادي من آثار الظلم في القلوب الكريمة.

غير أنه لما رأى أن البيت ظل صامتاً، وأن المارة مندهشين من هذا الإسراف بدأوا يتزاحمون حوله ويخرجون ألسنتهم ويجعلون له آذان الأرنب، ابتعد رويداً رويداً واتخذ له مسكناً في غرفة صغيرة على مسافة قصيرة من قصر بلانغون.

وألقى بنفسه على فراش رديء وغطاء رديء، وراح يبكي بكاء مريراً، ومرت في ذهنه ألف فكرة كل واحدة منها أكثر من سابقتها؛ وأراد أن ينتظر بلانغون

عند مرورها ويضربها بخنجره؛ وراودته للحظة فكرة العودة إلى كولوفون وتسليح عبيده وخطفها بالقوة بعد أن يشعل النار في قصرها.

وبعد ليلة مؤرقة لم يكد يمضيها مورفيوس، ذلك الأخ الشاحب للموت، حتى أدرك بعد أن لمس جفونه بطرف صولجانه أنه مغرم ببلانغون أكثر من أي وقت مضى، وأنه يستحيل عليه أن يعيش بدونها. ومهما ساءل نفسه في كل الاتجاهات بما في ضميره من رقة وتأنيب ضمير لم يستطع أن يجد عيباً ولم يعرف ما يؤنب نفسه عليه مما يبرر به سلوك بلانغون.

فمنذ اليوم الذي قابلها فيه وهو يسير على خطاها كظلها؛ ولم يذهب قط إلى الحمامات أو النادي الرياضي أو الصيد أو السهرات الليلية مع شبان في مثل سنه؛ ولم تقع عيناه قط على امرأة، ولم يعش إلا من أجل حبها .

ولم يسبق أن عشق عذراء طاهرة لا تشوبها شائبة كما عشق بلانغون. فإلى ماذا إذن يمكن أن يعزى هذا التغير المفاجئ في قلبه، هذا التغير الكامل في مثل هذه الفترة الزمنية القصيرة؟ هل يرجع إلى غدر ما من جانب أرخيناسا ولامي، أم إلى نزوة بلانغون البسيطة؟ ما الذي يمكن أن تكون هاتان المرأتان قد قالتا لها ما يمكن أن يحول أرق الحب إلى كراهية واشمئزاز من

غير سبب واضح ؟ لقد ضاع الطفل نفسه في متاهة من التخمينات، ولم يصل إلى شيء مقنع .

ولكن في كل هذه الفوضى من الأفكار، وفي نهاية كل هذه الطرق المتقاطعة والأزقة العمياء، وقفت مثل تمثال شاحب كئيب هذه الفكرة: يجب أن ترد بلانغون حبها و إلا قتلت نفسي.

ولم تكن بلانغون من ناحيتها أقل تعاسة؛ فقد تهدمت مصالح حياتها، وذهبت روحها مع كتسياس وأطفأت شمس سمائها، وبدا كل شيء حولها ميتاً مظلماً. وكانت قد سألت عن باخيدس فعلمت أن كتسياس قد أحبها وأحبها بجنون خلال السنة التي أقامها في ساموس، وكانت تعتقد أنها أول من أحبها كتسياس وأنها كانت البادئة له في الأسرار الحلوة. إن ما كان يسحرها في هذا الطفل هو براءته وطهارته؛ ففيه أعادت اكتشاف الصراحة العذرية التي كانت قد فقدتها. لقد كان بالنسبة لها شيئاً منفصلاً وعفيفاً ومقدساً، مذبحاً مجهولاً تسكب فيه عطور روحها. كلمة واحدة أفسدت هذه البهجة؛ لقد انكسرت التعويذة؛ لقد انكسرت التعويذة، وأصبح حباً مثل كل الحب الآخر، حباً مبتذلاً ومبتذلاً؛ تلك الكلمات الساحرة، تلك المداعبات الإلهية المتواضعة التي ظنت أنها اخترعتها لنفسها، كل ذلك كان قد استعمل من

قبل لشخص آخر، لم يكن سوى صدى، لا شك أنه ضعيف، لخطب أخرى من نفس النوع، دور ببغاء حفظته عن ظهر قلب. كانت بلانغون قد سقطت من قمة الوهم الوحيد الذي كان لديها على الإطلاق، ومثل تمثال مدفوع من فوق عمود، تحطمت في سقوطها. وكانت في غضبها قد شوهت تمثالاً لذيذاً لأفروديت التي شيدت لها معبداً صغيراً من الرخام الأبيض في أسفل حديقتها تخليداً لذكرى محبوباتها الجميلات؛ ولكن الإلهة التي تأثرت ببأسها لم تستاء من هذا التدنيس، ولم تنزل بها العقاب الذي كانت ستلقاه من أي إله آخر أشد منها.

وكان قطزياس يذهب كل ليلة إلى عتبة باب بلانغون ويبكي على عتبة باب بلانغون ككلب مخلص ارتكب خطأ ما وطرده سيده من البيت ويريد أن يعود إليه؛ وكان يقبل البلاطة التي وضع فيها بلانغون قدمه الساحرة. وتكلم إلى الباب وألقى أرق الكلام ليلين لها؛ وضاعت الفصاحة؛ وكان الباب أصم أبكم؛ وأخيراً استطاع أن يرشو أحد البوابين ويدخل البيت؛ وهرول إلى غرفة بلانغون حيث وجدها مستلقية على سريرها ووجهها باهت أبيض وذراعاها ميتتان متدليتان في حالة يأس تام؛ فأعطاه ذلك بعض الأمل؛ وقال في نفسه: (إنها تتألم، أما زالت تحبني؟ ذهب إليها وجثا على ركبتيه بجانب السرير .

أما بلانغون التي لم تكن قد سمعته وهو يدخل، فقد قامت بحركة مفاجئة من الدهشة عندما رأته، ونهضت نصف نهوض وكأنها تريد أن تغادر؛ ولكن قواها خانتها فاستلقت مرة أخرى وأغمضت عينيها ولم تعط أي إشارة أخرى تدل على وجودها، آه يا حياتي يا حبيبتي الجميلة، ماذا فعلت لك حتى ترفضيني هكذا؟ وبينما هو يقول هذا الكلام قبّل كتسياس ذراعيها الباردتين ويديها الجميلتين اللتين غمرهما بدموع فاترة. فتركته بلانغون كأنها لم تلاحظ وجوده.

"بلانغون! يا عزيزتي، يا جميلتي بلانغون! إن كنت لا تريدين لي الموت، فأعيدي إليّ نعمك الطيبة، وأحبيني كما كنتِ تحبينني. أقسم لك، يا بلانغون! أنني سأقتل نفسي عند قدميك إذا لم ترفعني بكلمة طيبة أو ابتسامة أو قبلة. كيف يمكنك أن تشتري عفوي أيها العنيد؟ إنني غنية؛ سأعطيك مزهريات منقوشة، وأثواباً أرجوانية مصبوغة مرتين، وعبيداً بيضاً وسوداً، وقلائد من الذهب، وعقوداً من اللؤلؤ. أما أنا فلا أريد شيئاً من هذا؛ أحضري لي السلسلة الذهبية لباخيدس الساموسي، قالت بلانغون بمرارة لا يمكن التعبير عنها: (سأعيد لك حبي) وبعد أن قالت هذه الكلمات انزلقت على قدميها وعبرت الغرفة واختفت وراء ستار كالرؤيا البيضاء.

لم تكن سلسلة باخيدس الساماني كما قد يتصور المرء قلادة بسيطة تلف مرتين أو ثلاثاً حول العنق، ثمينة لأناقتها و إتقان صنعها ؛ بل كانت سلسلة حقيقية سميكة كتلك التي كانت تستخدم في ربط السجناء المحكوم عليهم بالعمل في المناجم، طولها عدة أذرع ومصنوعة من أنقى الذهب.

وكانت باخيدس تضيف كل شهر بضع حلقات إلى هذه السلسلة؛ وعندما كانت تسرق بعض ملوك آسيا الصغرى، أو بعض الأسياد الفرس العظماء أو بعض الأثينيين الأغنياء من ملاك الأراضي، كانت تذيب الذهب الذي حصلت عليه وتطيل سلسلتها الثمينة.

هذه السلسلة لتبقيها على قيد الحياة حين تشيخ، ويذهب العاشقان اللذان يخيفهما تجعد في أول الأمر، وشعرة بيضاء ممزوجة بضفيرة سوداء، ليأخذا نذورهما وسررهما إلى حوتة أقل شهرة ولكنها أصغر سناً وأعذب .

أما باخيدس، وهي نملة بعيدة النظر، فتمضي في حياتها المجنونة كمحظية تغني كالصراصير الصاخبة، وتظن أن الشتاء لا بد آتٍ وتجمع حبات الذهب للموسم الرديء .

وهي تعلم حق العلم أن العشاق الذين يتلون الآن أبياتاً من السداسيات والخماسيات أمام رواقها، سيطردونها ويضربونها بالمعاول من عبيدهم إذا ما

تسولت عتبة دارهم وقبّلت زاوية مذبحهم المنزلي وهي عجوز قد بلغ بها الكبر سنها وانحنى بها البؤس. ولكن مع سلسلتها التي ستفصل منها عدداً معيناً من الخواتم كل عام، ستعيش حرة مغمورة مسالمة في قرية مجهولة، وستموت بلطف، تاركة ما يكفي لدفع تكاليف جنازة مشرفة وتأسيس كنيسة ما لحماية فينوس. كانت هذه هي الاحتياطات الحكيمة التي رأى باخيدس أن يتخذها ضد البؤس المستقبلي والعوز في سنواتها الأخيرة؛ لأن المومس ليس لها أولاد ولا أهل ولا أصدقاء ولا شيء يربطها بنفسها، وعليها أن تغمض عينيها عن نفسها، إذا جاز التعبير. إن طلب سلسلة باخيدس كان طلباً لشيء مستحيل كوضع البحر في غربال؛ وكان يمكن أن يكون طلباً لتفاحة ذهبية من جنة هسبريدس .

وكانت بلانغون الحاقدة تدرك هذا جيداً، بل كيف يمكن لباخيدس أن تفكر في أن تتنازل لمنافس لها عن ثمرة مدخرات حياتها، وكنزها الوحيد، ومواردها الوحيد لأوقات الشدائد؟ إذن فقد منحتها بلانغون إجازة دائمة، وكانت تنوي ألا تراها مرة أخرى أبداً، ولكن كتسياس لم يعزها فقدان بلانغون. فقد باءت كل محاولاته للوصول إليها والتحدث معها بالفشل، ولم يتمالك نفسه من التجول كالظل في أرجاء البيت، على الرغم من التهكمات التي كان يتلقاها

من العبيد وقوارير الماء القذر التي كانوا يصبونها فوق رأسه استهزاءً. وأخيراً عزم على بذل جهد فائق، فذهب إلى بيرايوس ورأى سفينة ثلاثية تبحر إلى ساموس، فنادى الربان وسأله إن كان في وسعه أن يأخذه على متنها. فتأثر الربان بمظهره الحسن، وتأثر أكثر من ذلك بالقطع النقدية الذهبية الثلاث التي دسها في يده، ووافق على طلبه بسهولة، فثقلت المرساة، وانحنى المجدفون عراة مدهونين بالزيت على مقاعدهم، وأبحرت السفينة. كانت سفينة جميلة تدعى الأرجو، مبنية من خشب الأرز الذي لا يتعفن أبدًا. وكانت السارية الرئيسية منحوتة من خشب الصنوبر من جبل إيدا؛ وكانت تحمل شراعين كبيرين مصنوعين من الكتان المصري، أحدهما مربع والآخر مثلث؛ وكان بدن السفينة كله مطلياً بالطلاء الزخرفي، وعلى الألواح الخشبية كانت هناك صور حية لنيريدات وتريتون يلعبان معاً. كان ذلك من عمل رسام أصبح مشهورًا منذ ذلك الحين، وكان قد بدأ بطلاء السفن. وكثيراً ما كان الفضوليون يأتون ليتفحصوا ألواح الأرغو ليقارنوا بين روائع المعلم وبداياته؛ ولكن، على الرغم من أن كتسياس كان محباً كبيراً للرسم ومتمتعاً بتشكيل الخزائن، فإنه لم يلق بنظره فقط على لوحات الأرغو. كانت المياه

الزرقاء التي تقطعها المجاديف وتبيضها تدور مزبداً على طول الجوانب المصقولة من السفينة الثلاثية .

كان بالإمكان رؤية الصور الظلية البخارية لبعض الجزر من بعيد، وسرعان ما اختفت خلف السفينة، ثم اشتدت الرياح ورفعت الشراع، فرفرف مرتبكاً لبضع لحظات قبل أن ينتفخ أخيراً ويدور مثل ثدي مليء بالحليب، ولجأ المجذافون الذين كانوا يلهثون إلى الظل تحت سواري السفينة، ولم يبق على ظهر السفينة سوى بحارين اثنين فقط هما الربان وكتسياس الذي كان جالساً عند سفح الصاري يحمل تحت ذراعه صندوقاً صغيراً يحتوي على ثلاث محافظ ذهبية وخنجرين جديدين حادين، وهما مورده الوحيد وملاذه الأخير إذا لم ينجح في محاولته اليائسة.

هذا ما أراد أن يفعله الطفل: أراد أن يذهب ويلقي بنفسه عند قدمي باخيدس ويغمر يديها الجميلتين بالدموع ويتوسل إليها بكل آلهة السماء والجحيم، وبكل ما تملكه من حب له، وبكل ما تملكه من شفقة على أمه العجوز التي سيقودها موتها إلى القبر، وبكل ما يمكن أن تستحضره بلاغة العاطفة من بلاغة مؤثرة ومقنعة، أن تعطيه السلسلة الذهبية التي طالبتها بلانغون كشرط قاتل لمصالحتها معه.

كما ترون، كان كتسياس الكولوفوني قد فقد عقله تمامًا. على أن مصيره كله كان معلقاً على الخيط الهش من هذا الأمل؛ وبعد أن فشل في هذه المحاولة، لم يبق له إلا أن يفتح بأشد خنجرين من خناجره ثغراً رديئاً على صدره الأبيض ليقبله قبلة باردة من الباركيه.

وبينما كان الطفل الكولوفوني يفكر في كل هذه الأشياء، كانت السفينة لا تزال تبحر، أسرع وأسرع، وكانت الانعكاسات الأخيرة للشمس الغاربة لا تزال تلعب على النحاس المصقول للدروع المتدلية من مؤخرة السفينة، عندما صاح الربان: (اليابسة! اليابسة!).

لقد وصلنا إلى ساموس.

وما كاد الفجر الأشقر يرفع بإصبعه ستائر فراشه ذات اللون الزعفراني حتى شق الطفل طريقه نحو مسكن باخيدس بأبطأ ما يكون؛ لأنه في غفلة من الليل كان يلعن الليل لبطئه الشديد، وكان يريد أن يدفع عجلات مركبته فوق منحنى السماء بنفسه، والآن خاف أن يصل، فسلك أطول طريق، وسار بخطوات بطيئة. لقد كان متردداً في التخلي عن أمله الأخير، وكان متردداً في قطع عقدة مصيره بنفسه؛ وكان يعلم أن كل ما عليه أن يفعله هو أن يلعب

النرد؛ وكان يمسك البكرة في يده، ولم يجرؤ على إلقاء المكعب القاتل على الطاولة.

ومع ذلك فقد وصل، وبينما هو يلمس العتبة وعد بعشرين بقرة بيضاء ذات قرون ذهبية لعطارد إله الفصاحة، ومائة زوج من الحمام السلحفاة للزهرة التي تغير القلوب، فعرفه عبد سابق لباكسيديس: (ما هذا أنت يا كتسياس؟ لِمَ شُحوبُ المَوتى على وجهك؟

شعرك مبعثر في غير نظام، وكتفاك لم يعودا ممسوحين بالبنزين، وطية عباءتك تتدلى عشوائياً، وذراعاك وساقاك لم يعودا مشعثتين. أنت غير مهذب كابن فلاح أو شاعر غنائي. ما البؤس الذي وقعت فيه؟ ما هي المصيبة التي حلت بك؟

لقد كنت يوماً ما نموذجاً للأناقة فلتسامحني الآلهة، لقد تمزقت سترتك في موضعين - يا إريفيل، لست بائساً، أنا لست بائساً، أنا تعيس. خذ هذه الحقيبة واجعلني أتحدث إلى سيدتك على الفور.

وذهبت الجارية العجوز التي كانت ممرضة لباخيدس والتي كانت تتمتع بفضل الدخول إلى غرفتها بحرية في كل ساعات النهار، ذهبت لتجد سيدتها وطلبت من كتسياس أن ينتظرها في نفس المكان، فقالت: (حسناً يا

إريفيلوس؟ إن شخصاً أحبك حباً جماً يطلب رؤيتك، وهو لا يصبر على التمتع ببريق عينيك حتى أنه أعطاني هذه الحقيبة لأعجل بالمفاوضات - شخص أحبني حباً جماً؟ سألها باكسيديس متأثراً قليلاً. كلهم يقولون ذلك .

إن كتسياس الكولوفوني وحده هو الذي أحبني حباً جماً - إذن فقد كان اللورد كتسياس الكولوفوني نفسه - تقولين كتسياس؟ كتسياس، حبيبي كتسياس! هل هو هناك يطلب رؤيتي؟ اذهب، اركض بأسرع ما تحملك ساقاك المتذبذبتان، وأحضره إلى هنا دون مزيد من التأخير. خرج إريفيلوس بسرعة أكبر مما يتوقعه المرء من شيخوخته.

إن باكيس من ساموس جميلة من نوع مختلف جداً عن جمال بلانغون؛ فهي طويلة القامة، ممشوقة القوام، عيناها وشعرها أسودان، وفمها ممتلئ، وابتسامتها متلألئة، وعيناها رطبتان لامعتان، وصوتها ساحر، وذراعاها مستديرتان قويتان، وتنتهي بيدين في غاية الرقة. وبشرتها سمراء ناريّة نشيطة ملتهبة مزيّنة بأشقر لامع كعنق سيريس بعد الحصاد، ونحرها نقيّ يرفع ثنيتين جميلتين في سترتها من البيسوس.

ولا شك في أن بلانغون وباخيس هما بلا ريب أكثر الفتاتين فتنة في اليونان كلها، ولا بد أن يقال إن كتسياس الذي كان عاشق باخيس وبلانغون كان من

الفانين الذين حظوا بتفضيل الآلهة؛ وعاد إريفيلوس مع كتسياس ومشى الطفل إلى السرير الصغير حيث كانت باخيدس جالسة، وقدماها على سلم من العاج. وشعر كتسياس عند منظر حبيبته السابقة بحركة غريبة في نفسه؛ وسرى في قلبه فيض من العواطف العنيفة؛ ولم يستطع أن يصمد لهذه المحنة وهو ضعيف منهك من البكاء والسهر والندم على الماضي والقلق على المستقبل، فسقط على ركبتيه منكس الرأس، مائلًا إلى الوراء، متدليًا شعره، مغمض العينين، مفكوك الذراعين كأنما ذهبت روحه لزيارة مسكن الأرواح.

فرفعت باخيدس خائفة الطفل بين ذراعيها بمساعدة ممرضته، ووضعته على سريره، وعندما فتح كتسياس عينيه مرة أخرى أحس بدفء شفتي باخيدس الرطبة على جبهته، وهي تنحني عليه بتعبير من الحنان القلق

قالت باخيدس التي كانت قد عزت إغماء كتسياس إلى مجرد الانفعال برؤيتها مرة أخرى - قال الطفل بصوت ضعيف وهو يحتضن عنق الهيتيرا بذراعيه النحيفتين: (آه يا باخيدس! لا بد أن أموت. ألست وسيماً، ألست شاباً، ألست محبوباً؟

أي امرأة، للأسف! أي امرأة لا تحبك؟ ما فائدة الحديث عن الموت؟ إنها كلمة لا تناسب هذا الفم الجميل. أي أمل قد كذب عليك؟ أي مصيبة قد حلت بك؟ هل ماتت أمك؟ هل صرفت سيريس عينيها الذهبيتين عن حصادك؟ هل داس باخوس بازدراء على العنب غير الناضج في تلالكم؟ أنت وحدك يا باخيدس تستطيعين أن تنقذيني يا أفضل النساء وأكرمهن؛ ولكن لا، ما كنت لأجرؤ على إخبارك أبداً؛ إنه شيء جنوني لدرجة أنك ستحسبينني مجنوناً هارباً من أنتيكيروس.

-تكلم يا طفلي؛ أنت الذي أحببته كثيراً، والذي ما زلت أحبه كثيراً، رغم أنك خنتني من أجل أخرى (فلتصب فينوس المنتقمة غضبها عليه!)، ماذا عساك تطلب مني؟

-باخيدس، أحتاج إلى سلسلتك الذهبية"، قالها كتسياس بصوت بالكاد يمكن فهمه .

-تريد سلسلتي يا طفلي ومن أجل ماذا؟ " أجابته باخيدس مندهشة: "ألهذا السبب تريد أن تموت؟

-اسمعي يا جميلتي باخيدس وكوني طيبة معي كما كنتِ دائماً. إنني أحب بلانغون الميليسيان، أحبها إلى حد الجنون يا باخيدس. إن نظرة واحدة منها

تساوي عندي أكثر من ذهب الملوك، وأكثر من عرش الآلهة، وأكثر من الحياة نفسها؛ وبدونها أموت؛ يجب أن أحظى بها، إنها ضرورية لوجودي كضرورة الدم في عروقي، والنخاع في عظامي؛ لا أستطيع أن أتنفس هواء غير الهواء الذي يمر على شفتيها. بالنسبة لي كل شيء مظلم حيث لا تكون هي؛ ليس لدي شمس أخرى غير عينيها. لا شك أن ساحرة ما من تيساليا قد سحرتني. ولكن ماذا عساي أن أقول، إن سحرها الوحيد هو جمالها الذي لا يضاهيه إلا جمالك. لقد امتلكتها ورأيتها كل يوم من أيامي الأربعة عشر، وسكرت بحضرتها العاشقة كرحيق سماوي؛ لقد أحبتني كما أحببتني أنت يا باخيدس؛ ولكن هذه السعادة كانت أعظم من أن تدوم. غارت الآلهة مني. فأطردتني بلانغون من بيتها؛ وعدت منبطحاً على ظهري كالكلب، فأطردتني مرة أخرى. بلانغون، شعلة حياتي، وروحي، وملكي، بلانغون تكرهني، بلانغون تكرهني؛ كانت تود أن تمر خيول مركبتها فوق جسدي الملقى على بابها. واتكأ كتسياس وقد خنقه النحيب على كتف باخيدس وأخذت تبكي بكاء مريراً: (آه، لست أنا التي كانت لي الشجاعة أن أسبب لك كل هذا الحزن) قالت باخيدس وهي تمزج دموعها بدموع حبيبها السابق: (ولكن ماذا أستطيع أن أفعل لك يا مسكيني البائس، وما شأني أنا مع بلانغون المرعبة؟

-قالت الطفلة: "لا أعرف من الذي أخبرها بعلاقتنا الغرامية، ولكنها اكتشفت الأمر. لا بد أنها تلك الأرخناسا السامة التي تخفي تحت كلماتها المعسولة الـ 143 مرارة أشد مرارة من مرارة الأفاعي والأفاعي. لقد ألقى هذا الخبر ببلانغون في نوبة من الغضب حتى إنها لم تكن لتكلمني؛ إنها تغار منك غيرة فظيعة يا باخيدس وتلومك على أنك أحببتني قبلها؛ لقد ظنت أنها الأولى في قلبي، فقتل كبرياؤها المجروح حبها. كل ما استطعت أن أفعله لألين لها كان عبثاً. وكل ما أجابتني به هو هذه الكلمات: (أحضر لي السلسلة الذهبية لباخيدس الساموسي، وسأرد لها نعمتي. لا ترجع بدونها، لأني سأخبر عبيدي السكيثيين أن يرموا عليك عبيدي اللاكونيين وسأفترسك ."

هذا ما أجابني به بلانغون العنيد على صلواتي الجادة وعبادتي الساجدة. قلت له: (إذا لم أستطع أن أستمتع بحبي كما اعتدت، فسأقتل نفسي) وبينما هو يقول هذه الكلمات، استل الطفل خنجراً بمقبض عقيق من ثنية سترته وتظاهر بأنه يضرب به نفسه. شحب وجه باخيدس وأمسك بذراعه في الوقت الذي كان فيه النصل الحاد على وشك الوصول إلى جلد الطفل الناعم المصقول.

- ففكت يده ورمت بالخنجر في البحر، وأطلت من نافذة غرفة نومها، ثم قالت له وهي تلف ذراعيها الممتلئتين حول جسد كتسياس: "يا نور عيني سترى بلانغونك مرة أخرى؛ ومع أن قصتك سببت لي ألماً إلا أنني أسامحك؛ فإيروس أقوى من إرادة البشر، ولا أحد يستطيع أن يسيطر على قلبه. إنني أعطيك سلسلتي؛ خذها إلى عشيقتك الغاضبة؛ وكن سعيداً معها، وفكر أحياناً في باخيدس الساموسي الذي أقسمت أن تحبه إلى الأبد. " غمر كتسياس هذا الكرم، وأغدق على الهتيرا بالقبلات، وعزم على أن يبقى معها وألا يرى بلانغون مرة أخرى؛ ولكنه سرعان ما أدرك أنه لن يقوى على هذه التضحية، ومع أنه كان يثقل نفسه في داخله بأشد أنواع الجحود فقد رحل حاملاً معه سلسلة باكشيس ساموس.

وبمجرد أن وطئت قدماه بيرايوس، أخذ حمالين اثنين، ودون أن يعطي لنفسه وقتًا لتغيير ملابسه، ركض إلى المضيفة بلانغون.

ولما رآه العبيد السكيثيون بادروا إلى فك سلاسل كلابهم الوحشية؛ ولكن كتسياس استرضاهم بأن أكد لهم أنه يحمل معه سلسلة باخيدس الساموسي الذهبية الشهيرة. قال كتسياس لأحد خدم بلانغون: "خذني إلى سيدتك"، فقدمه الخادم وحامليه

فقالت بلانغون من المدخل، وقد رأت أن الميلاني كان عابساً، "لا تغضبي، لا تحاولي أن تطرديني، لقد فعلت ما طلبت، وأحضرت لك سلسلة باخيس ساموس الذهبية." ففتح الصندوق وأخرج بجهد كبير السلسلة الذهبية التي كانت طويلة وثقيلة بشكل مذهل. "ونهضت بلانغون وذهبت إليه وضمته إلى صدرها بقوة، فقال: (هل ستجعلينني آكل من كلابك وأضرب من صقورك، يا بلانغون الجاحدة القاسية؟) قالت: (آه، لقد كنت شريراً وقاسياً وعديم الشفقة؛ لقد جعلتك تعاني يا قلبي العزيز. لا أعرف كيف سأعاقب نفسي على كل هذه القسوة. لقد أحببت باخيدس، وكنت على حق، فهي أفضل مني. ما فعلته للتو ما كنت لأمتلك القوة أو الكرم لأفعله. إنها روح عظيمة في جسد جميل، لا بد أنك كنت تعشقينها ومرت على وجه بلانغون حمرة خفيفة، هي آخر ومضة من ومضات الغيرة التي كانت تخبو على وجه بلانغون؛ ومنذ ذلك اليوم استعاد كتسياس في ذروة أمانيه امتيازاته، واستمر يعيش مع بلانغون مما أثار خيبة أمل كبيرة لدى جميع الأثينيين الرائعين؛ وكانت بلانغون فاتنة في حقه، وبدا أنها أخذت على عاتقها أن تمحو حتى ذكرى قسوته السابقة. فأخذت ذات صباح بعض ألواح الجميز الصغيرة المغطاة بطبقة خفيفة من الشمع، وكتبت بضعة أسطر بطرف قلم، ثم دعت

رسولاً وأعطته الألواح، وطلبت إليه أن يأخذها في أسرع وقت ممكن إلى ساموس، إلى باخيس ساموس.

وبعد أيام قلائل، تلقى باخيدس من يد الرسول الأمين الذي كان قد أسرع، ألواح الجميز الصغيرة في صندوق من الخشب الثمين، وقد أرفق به اتحادين من اللؤلؤ المستدير الكامل من أجمل ما يكون من اللآلئ الشرقية.

وكان نص الرسالة كما يلي: (من بلانغون ميليتوس إلى باخيس ساموس، تحياتي لقد أهديت إلى كتسياس من كولوفون السلسلة الذهبية التي هي أعظم كنوزك، إرضاء لنزوة منافس لك؛ ولقد تأثرت بهذا العمل حتى تحول كرهي لك إلى صداقة. لقد منحتني هدية رائعة؛ وأريد أن أمنحك هدية أثمن منها. أنت تحبين كتسياس؛ بيعي منزلك، وتعالي إلى أثينا؛ سيكون قصري لك، وسيطيعك عبيدي وسنقتسم كل شيء حتى كتسياس. إنه لك بقدر ما هو لي؛ لا أحد منا يستطيع أن يعيش بدونه: إذن دعينا نعيش كلانا معه .

وبعد شهر، جاءت باخيدس الساموسية إلى بلانغون الميليسيان ومعها بغلان محملان بالمال، فقبلها بلانغون على جبينها وأخذ بيدها وقادها إلى غرفة كتسياس.

قالت بصوت عذب كصوت الناي: (لقد جئتك بصديق لك يا كتسياس) فالتفت كتسياس إلى الوراء؛ وبدت الدهشة الكبرى على ملامحه من منظر باكثيديس، فقالت بلانغون: (إنها باكثيديس من ساموس؛ ألا تعرفها؟ هل أنت في مثل هذا النسيان؟ لماذا لا تقبّلها، ألا تظن أنك لم ترها من قبل؟ ودفعت به إلى ذراعي باخيدس بإيماءة متغطرسة متمردة ذات نعمة ساحرة.

وشرح كل هذا لكتسياس الذي كان مسروراً كما تتوقع، لأنه لم ينقطع عن حب باخيدس أبداً، وكانت ذكراها تمنعه من السعادة التامة؛ ومهما يكن من جمال حبها الحاضر فإنه لم يستطع أن يمنع نفسه من التحسر على حبها الماضي، وكان التفكير في أن يوقعه سوء حظ هذه المرأة الباهرة في أحزان لا يمكن التعبير عنها أحياناً.

وهكذا عاش كل من كتسياس وباخيدس وبلانغون في اتحاد مثالي، وعاشوا في قصرهم حياة إيليسية جديرة بأن تحسدهم الآلهة عليها. ولم يكن أحد يستطيع أن يميز أي الصديقين كان يفضل كتسياس على الآخر، وكان من الصعب أن يقول أحد أيهما كان يحب بلانغون أكثر من باخيدس، أو باخيدس أكثر من بلانغون. وقد استبدل تمثال أفروديت في كنيسة الحديقة وطلي وزُيّن من جديد. وذُبحت العشرون بقرة بيضاء ذات القرون الذهبية قربانًا

لعطارد إله الفصاحة، والمائة زوج من الحمام لفينوس التي تغير القلوب، وفقًا للنذر الذي قطعه كتسياس. هذه المغامرة أحدثت ضجة، وأضاف اليونانيون الذين دهشوا من تصرف بلانغون إلى اسمها اسم باسيفيل. هذه هي قصة بلانغون الميليسيان كما كانت تروى في عشاءات صغيرة في أثينا في زمن بريكليس. أرجو أن تعذروا أخطاء المؤلف.

روح المنزل

1

عندما أكون وحدي وليس لدي ما أفعله، كما أفعل في كثير من الأحيان، أرمي بنفسي على كرسي بذراعين وأطوي ذراعيّ وأستعرض حياتي وعيناي على السقف، فتتلقف ذاكرتي الساحرة الخلابة لوحة فنية وترسم بضربات عريضة وخطوط فرشاة عريضة سلسلة من اللوحات الفنية بألوانها الأكثر تألقاً وتنوعاً؛ لأنه على الرغم من أن وجودي الخارجي كان شبه معدوم، فقد عشت في داخلي الكثير.

إن أكثر ما يسعدني في هذه البانوراما هي اللقطات الأخيرة، الشريط الذي يتحول إلى اللون الأزرق ويلامس الأفق، والأبخرة البعيدة الغامضة كذكرى حلم، الحلوة للعين والقلب، طفولتي هناك، مرحة وصريحة، جميلة كصباح نيسان، عذراء في الجسد والروح، تبتسم للحياة كما لو كانت شيئاً جيداً. وللأسف الشديد، فإن نظراتي تتريث برضا على هذا التمثيل لشخصيتي السابقة التي لم تعد هي شخصيتي الحاضرة! إنني أشعر بنوع من التردد عندما أرى نفسي؛ كما يحدث عندما يلتقي المرء صدفة بصديق أو قريب بعد غياب طويل بحيث يكون قد مضى وقت طويل حتى ينسى ملامحه، إنني أجد

أحياناً كل العناء في التعرف على نفسي. في الحقيقة، أنا لا أشبه نفسي على الإطلاق، فقد مرت أشياء كثيرة في رأسي المسكين منذ ذلك الحين! لقد تغيرت فراستي الجسدية والمعنوية تمامًا.

لقد تساقطت من روحي كزهر اللوز في نسيم بارد، وداسها الرجال بأقدامهم القذرة؛ وأفكاري المراهقة التي مستها ولوثتها أيديهم الخشنة، لم تحتفظ بشيء من نضارتها البدائية ونقائها كجناح الفراشة الذي يترك على أصابعه غباراً من الذهب والأزرق السماوي والقرمزي، وقد ترك مبدأه العطر على سبابة و إبهام من أراد أن يمسكه في طيرانه الشبيه بالعفريت. ومع نضارة عقلي ذهبت نضارة جسدي أيضاً؛ وجنتاي اللتان كانتا ممتلئتين ورديتين كالتفاح، أصبحتا مجوفتين بعمق؛ وفمي الذي كان يضحك دائماً، والذي كان المرء يحسبه خشخاشاً غارقاً في وعاء من اللبن، أصبح أفقياً شاحباً؛ وملامحي مرسومة في مسطحات حادة واضحة المعالم، وبدأت التجاعيد المبكرة تتشكل على جبهتي؛ ولم يعد في عيني تلك الرطوبة الصافية التي كانت تجعلهما تلمعان كالينبوعين حيث الشمس تهب؛ لقد أتعبتهما السهرات، وأرهقتهما الأحزان وأحمرتهما، وتشققت محاجرهما، حتى ليكاد المرء يفهم العظام تحت اللحم، أي الجثة تحت الإنسان، والعدم تحت الحياة.

يا ليتني أستطيع العودة إلى نفسي! لكن ما حدث قد حدث، دعونا لا نفكر في الأمر بعد الآن. من بين كل هذه الصور، تبرز صورة واحدة على وجه الخصوص بوضوح، كما لو كانت في نهاية سهل موحد، كتلة من الغابات، برج كنيسة تزيّنه الشمس الغاربة. إنه دير عمي الكاهن؛ لا يزال بإمكاني رؤيته من هنا، على الجانب الآخر من التل، بين أشجار الكستناء العالية، على مرمى حجر من كنيسة سان كاريبيرت.

يبدو لي أنني في المطبخ في هذه اللحظة؛ أتعرف على السقف المخطط بروافد البلوط التي يغطيها الدخان الأسود؛ الطاولة الثقيلة بأرجلها الضخمة؛ النافذة الضيقة بزجاجها الملون الذي لا يسمح بدخول سوى نصف ضوء غامض مبهم وغامض يستحق أن يكون في ديكور رامبرانت، الرفوف المصفوفة في طبقات، والتي تحمل كمية هائلة من الأواني النحاسية الصفراء والحمراء، بأشكال غريبة، بعضها يمتزج في الظلال، والبعض الآخر يبرز في الخلفية، قشرة بارزة على الجانب المضيء وانعكاسات على الحافة؛ لم يتغير شيء! الأطباق، والأطباق الفخارية الصافية كالفضة، وأواني الزهور الفخارية، والقوارير ذات البطون العريضة، والقوارير النحيلة ذات الأعناق الممدودة كما في لوحات الفنانين الفلمنكيين القدامى، كل شيء في نفس

المكان، كل التفاصيل الصغيرة محفوظة بدقة. في زاوية الجدار، متقزح اللون تحت أشعة الشمس، أستطيع أن أرى شبكة العنكبوت التي اعتدتُ في طفولتي أن أطعمها الذباب بعد قطع أجنحته، كما أرى صورة جاكوبوس براغماتر البشعة على باب مدان حيث الجص أكثر بياضاً. النار مشتعلة في الموقد، والدخان يتصاعد إلى أعلى على طول اللوحة التي تحمل شعار فرنسا؛ وتتطاير رذاذ الشرر من الجمر المتطاير؛ والدجاجة الفاخرة التي أعدت لعشاء عمي تدور ببطء أمام اللهب. يمكنني سماع دقات البصاق وأزيز الفحم وأزيز الدهن المتطاير في المقلاة الساخنة. بيرثي، مئزرها الأبيض مطوي فوق وركها، تسقيها من وقت لآخر بملعقة خشبية وتراقبها كأم على ابنتها. ثم تفتح بوابة الحديقة. ويدخل جاكوبوس براغماتر، ناظر المدرسة، بخطوات مدروسة ممسكاً بعصا مقدسة في يد، وماريا الصغيرة تضحك وتغني في اليد الأخرى... يا طفلتي المسكينة! بينما أكتب اسمك ترتعش دمعة في نهاية أهدابي المبللة. لقد وضعك الله بين ملائكته أيتها المخلوقة الحلوة الطيبة، أنت تستحقين ذلك لأنك أحببتني حباً جماً، وبما أنك لم تعودي معي في الحياة، فيبدو لي أنه لم يعد هناك شيء حولي، فلا بد أن العشب قد نبت طويلاً جداً فوق قبرك، لأنك مت هناك، ولم يذهب أحد إلى

هناك: ولا حتى أنا الذي كنت تفضلينه على كل من سواه، والذي كنت تنادينه زوجك الصغير، سامحيني يا ماريا! لم أتمكن حتى الآن من القيام بهذه الرحلة، ولكني سأذهب وسأبحث عن المكان؛ ولكي أجده سأتفحص النقوش على كل الصلبان، وعندما أجده سأسجد وأصلي طويلاً طويلاً حتى يطمئن ظلك؛ وسألقي على الحجر الأخضر الطحلبي الكثير من الأكاليل البيضاء وأزهار البرتقال حتى يبدو قبرك كسلة عرس.

للأسف، هكذا هي الحياة. إنه طريق شاق وشاق: قبل الوصول إلى الهدف، يتعب الكثيرون؛ أقدامهم تؤلمهم وتدميهم، ويجلس الكثيرون على حافة خندق ويغمضون أعينهم ولا يفتحونها مرة أخرى. وبينما أنت تمشي في الطريق يتضاءل الموكب: لقد بدأت مع عشرين شخصاً ووصلت وحدك إلى مثوى الإنسان الأخير، النعش؛ إذ ليس كل الناس يموتون صغاراً... وأنت يا ماريا لست الخسارة الوحيدة التي يجب أن أحزن عليها. لقد مات جاكوبوس براغماتر، وماتت بيرثي، وهما يرقدان منسيين في قاع مقبرة ريفية. ولم ينج توم، قط بيرثي المفضل، من سيدته: لقد مات حزناً على الكرسي الفارغ الذي كانت تجلس عليه لتغزل، ولم يدفنه أحد، لأن من كان يهتم بأمر توم المسكين سوى جاكوبوس براغماتر وبيرثي العجوز؟

لقد بقيت أنا وحدي لأتذكرهما وأكتب قصتهما حتى لا تضيع الذكرى.

2

- كان مساء شتاء؛ وكانت الرياح التي تندفع من المدخنة تطلق أنيناً وآهات غريبة: كانت تبدو مثل التنهدات المبهمة غير المفهومة التي يرسلها الأرغن على أصداء الكاتدرائية. كانت قطرات المطر ترشق النوافذ بصوت فضي صاف، وكنت أنا وماريا بمفردنا. كلانا جالسان على نفس المقعد، متكئان على بعضنا البعض بتكاسل، ذراعي حولها، وذراعها حولي، تكاد وجنتانا تتلامسان، وخصلات شعرنا تتشابك: هادئان جداً، مسترخيان جداً، منفصلان عن العالم، غافلان عن كل شيء، حتى أننا كنا نسمع لحومنا تحيا وشراييننا تنبض وأعصابنا ترتعش.

وكانت أنفاسنا تتقطع في وقت واحد على شفاهنا كالموج على الرمال، بصوت رقيق رتيب؛ وكان قلبانا يخفقان في انسجام؛ وكان جفنا يرتفع وفي وقت واحد؛ وكان كل شيء في روحينا وجسمينا منسجماً يعيش في تناغم، أو بالأحرى لم يكن بيننا إلا روح واحدة، فقد كان التعاطف الشديد قد صهر وجودينا في فرد واحد.

لقد كان هناك سائل مغناطيسي تشابكت خيوطه السحرية حولنا كشبكة حريرية ذات ألف لون، وكان هناك من كل ذرة من ذرات كياني ذرة واحدة ذهبت لتربط نفسها بذرة من ذرات ماريا؛ لقد كنا مرتبطين بقوة وحميمية لدرجة أنني متأكد أن الرصاصة التي كانت ستصيب أحدنا كانت ستقتل الآخر دون أن تمسه.

آه، من يستطيع، على حساب ما تبقى من حياتي، أن يعيد إليّ دقيقة واحدة من تلك الدقائق، القصيرة جداً والطويلة جداً، التي تحتوي كل ثانية منها على رواية داخلية كاملة، دراما كاملة، وجوداً كاملاً، لا لرجل بل لملاك! عمر محظوظ من العواطف الأولى، حين تبدو لك الحياة كما لو كانت من خلال منشور منمق، متلألئ، متلألئ، بألوان قوس قزح، حين يرتبط الماضي والمستقبل بحاضر لا حزن فيه، بذكريات حلوة وأمل لم يخدع، عصر الشعر والحب، حين لا نكون بعد أشراراً، لأننا لم نكن تعساء بعد، لماذا يجب أن تمر سريعاً، ولا يمكن لكل أسفنا أن يعيدك بعد أن تمضي! لا شك في أن الأمر لا بد أن يكون على هذا النحو، إذ من ذا الذي يريد أن يموت ويفسح الطريق للآخرين، إذا ما أتيحت لنا الفرصة ألا نفقد بكارة الروح هذه والأوهام السعيدة التي تصاحبها؟

الطفل هو ملاك نزل من العلاء، قصّ الله جناحيه عندما وضعه على الأرض، ولكنه لا يزال يتذكر وطنه الأول .

إنه يخطو خجولاً في دروب البشر، وحيداً؛ تتلاشى براءته عند ملامستهم له، وسرعان ما ينسى تماماً أنه جاء من السماء وأنه يجب أن يعود إليها. لقد ضاع في تأمل بعضنا بعضاً، ولم نكن نفكر في حياتنا الخاصة؛ كنا متفرجين على وجود خارج عن أنفسنا، ونسينا وجودنا الخاص.

ومع ذلك فإن هذا النوع من النشوة لم يمنعنا من إدراك أدنى ضوضاء داخلية، بل حتى أدنى تلاعب بالضوء في زوايا المطبخ المظلمة وفواصل العوارض: كانت الظلال المقطعة إلى ذرات باروكية تتجلى بوضوح في أعيننا؛ وكانت الانعكاسات المتلألئة للأواني الفسفورية الماسية، التي تضيئها انعكاسات أواني القهوة الفضية، تلقي بأشعة منشورية في كل رموش عيوننا. وكان صوت الساعة الرتيب لساعة الوقواق الجاثمة في دولابها البلوطي، وصرير النوافذ ذات الرصاص، وأنين الرياح، وخرير الحطب المتصاعد من الموقد، وكل التناغمات المنزلية تتردد بوضوح في آذاننا، ولكل منها معنى خاص .

لم يسبق لنا أن فهمنا جيداً سعادة البيت ومتع الموقد التي لا يمكن تحديدها! كنا سعداء جداً لوجودنا هناك، آمنين ودافئين، في غرفة محكمة الإغلاق، أمام نار صافية، وحدنا وبعيدين عن كل ما يزعجنا، بينما المطر يمطر ويعصف ويبرد في الخارج؛ نستمتع بجو صيفي دافئ، بينما الشتاء الذي كان يصدع بأصابعه البيضاء الصقيعية يعوي على مرمى حجر، يفصله عنا لوح زجاجي ولوح خشبي. مع كل صفير حاد للنسيم، ومع كل صفير حاد آخر، ومع كل هطول للمطر، كنا نمسك بعضنا بعضاً لنستمد القوة، وكانت شفاهنا تنفرج ببطء وتطلق آه يا إلهي!

-ثم سكتنا بعد ذلك ونحن نستمع إلى نباح كلب المزرعة، وصوت نباح كلاب أخرى، وصوت صهيل الحصان على الطريق الرئيسي، وصوت صرير ريشة الطقس الأجش، وفوق كل ذلك صرير صرصور الليل الكامن بين طوب الموقد، وقد صقله الدخان القديم.

-قالت ماريا الصغيرة، وهي تضع يديها الورديتين الممتلئتين في يدي: "أحب أن أكون صرصاراً"، "خاصة في الشتاء: كنت أختار شقًا قريبًا من النار قدر الإمكان وأقضي الوقت في تدفئة ساقي. وكنت أبطن زنزانتي بالشوك ولحية الهندباء؛ وكنت أجمع الزغب الذي يطفو في الهواء، وأصنع

منه فراشاً ووسادة ناعمة ورقيقة وأستلقي عليها. ومن الصباح حتى المساء، كنت أغني أغنية الصرصار الصغيرة، وأصرخ؛ ثم لا أعمل، ولا أذهب إلى المدرسة. يا لها من سعادة! لكنني لا أريد أن أكون أسود مثلهم ...

أليس من الشقاوة يا تيوفيل أن أكون أسود؟... وبينما كانت تقول هذه الكلمات، ألقت نظرة غزل على اليد التي كنت أمسكها: "أنت مجنون! أنت الذي لا تستطيع أن تجلس ساكناً للحظة واحدة، وسرعان ما تمل من هذه الحياة النائمة المستوية. فهو لا يرى الشمس، الشمس الجميلة بشعرها الذهبي، ولا السماء الياقوتية بسحبها الجميلة ذات الألوان المختلفة؛ وكل ما عليه أن ينظر إلى الموقد المسود والموقد والنار؛ وكل ما يسمع هو النسيم ودقات البصاق. يا للملل! لو أردت أن أكون شيئاً لفضلت أن أكون سيدة؛ حدثني عن ذلك بحق السماء، إنه جميل جداً! لقد حصلت على مشد من الزمرد، وعينين من الألماس، وأجنحة كبيرة من الشاش الفضي، وسيقان صغيرة مخملية. آه، لو كنت سيدة!... كم كنت سأطير في الريف، يميناً ويساراً، حسب هواي... على طول شجيرات الزعرور وأشجار التوت البري والورد المزهر! وألمس بطرف جناحي زهرة حوذان أو زهرة أقحوان منحنية في مهب الريح، وأركض من نصل العشب إلى شجر البتولا، ومن شجر البتولا

إلى البلوط، تارة في العراء، وتارة أخبط الأرض خبط عشواء، وأخدش مياه النهر الشفافة، وأزعج الجراد القرمزي في أوراق التنوفار، وأخيف بظلي الجداجد الصغيرة التي تتلوى في الأرجاء حذرة خائفة....

"بدلًا من ثقب في المدخنة، سيكون بيتي كأس المرمر من زنبق أو زهرة الجرس اللازوردية لبعض زهور الفولوبيليس، مبطنة من الداخل بلآلئ الندى. كنت على وشك أن أبدأ جملة أخرى عندما قاطعتني ماريا: (ألا يبدو لك، كما قالت، أن صرخة الصرصور قد تغيرت طبيعتها تماماً؟ لقد ظننت عدة مرات أثناء حديثك أنني سمعت كلمات واضحة بين النغمات؛ في البداية ظننت أنه صدى لصوتك، ولكنني الآن متأكدة تماماً أنه ليس كذلك .

يا طفلتي، إذا كنتِ تظنين أنني أشعر بالملل فأنتِ مخطئة بشكل غريب: لديّ ألف شيء أسلي به نفسي لا تعرفين عنه شيئاً؛ فساعاتي التي تبدو لكِ طويلة جداً تبدو لكِ وكأنها دقائق. فالغلاية تغني لي أغنيتها بصوت نصف صوتي؛ والنسغ الذي يتصاعد من نهاية جذوع الأشجار يصفر لي ألحان الصيد؛ والجمر المتطاير والشرر المتطاير يعزفان لي ثنائيات لا تسمع أذناك الدنيويتان لحنها. الريح المندفعة إلى أعلى المدخنة تدندن لي بقصائد رائعة وتروي لي قصة غامضة.

"ثم تتطاير رقاقات النار التي يوجهها في الهواء سمندل أصدقائي فتتشكل، من أجل استجمامي، رذاذًا مبهرًا، كرات مضيئة من الأحمر والأصفر، زخات من الفضة تتساقط في شبكات مزرقة، نيران من ألف لون ترتدي ثياباً أرجوانية ترقص الفاندانغو على ألسنة النار الملتهبة، وأنا متكئ على حافة قصري أدفئ نفسي حتى يحمرّ مشدّي الأسود، وأستمتع في راحتي بكل ما في الغفلة من لذة الغفلة ورفاهية البيت.

" عندما يأتي المساء، أستمع إلى حديثك وأقرأ. في الشتاء الماضي، كانت بيرث في الشتاء الماضي تعيد عليك الحكايات الجميلة وهي تغزل: لوازو بلو، وريكيه في الهوبي، وماغويلون وبيير دي بروفانس. لقد استمتعت بها بشكل فريد، وأحفظها كلها تقريباً عن ظهر قلب. وآمل أن تكون قد تعلمت هذا العام المزيد، وأن نحظى بالمزيد من الأمسيات السعيدة معاً: "أليس هذا أفضل من أن تكوني خادمة وتتجوليي في الحقول؟

" ولكن عندما يحلّ الخريف، عندما تتلألأ أوراق الشجر ذات اللون الزعفراني في الغابة، عندما يبدأ الثلج في التجمد الأبيض، عندما يلفّ الضباب البارد الشائك السماء الرمادية بخيوطه التي لا تحصى، عندما يلف الصقيع الأغصان العارية بالزغب المتلألئ، عندما لا يعود هناك المزيد من

الزهور لنستلقي عليها في المساء، ماذا سيحل بنا، أين يمكننا أن ندفئ أطرافنا المخدرة، أين يمكننا أن نجفف أجنحتنا المبللة بالمطر؟ لم تعد الشمس قوية بما فيه الكفاية لتخترق الضباب، لم يعد بإمكاننا الطيران، و إن استطعنا فأين نذهب؟ وداعًا يا شجيرات الزعرور والحوذان والأقحوان! لقد غطى الثلج كل شيء؛ والمياه التي خدشناها أثناء مرورنا لم تعد تشكل سوى بلورة صلبة؛ والورود قد ماتت، والعطور قد تبخرت؛ والطيور الجشعة تأخذك في مناقيرها وتحملنا إلى أعشاشها لتلتهم لحمك. كيف تهربين وقد أضعفك الصوم والبرد، فيمسكك القرويون الصغار تحت منديلهم ويوخزونك في قبعتهم بدبوس طويل. هناك، أيها الديك الحي، تعاني ألف ميتة قبل أن تموت. ومهما لوّحت بكفوفك المتسولة فلا أحد يعيرك أي اهتمام، لأن الأطفال مثل العجائز قساة: بعضهم لأنهم لا يشعرون بعد؛ والبعض الآخر لأنهم لا يشعرون بعد.

3

ثالثاً: بما أنك لم تر على الأرجح الصورة الكاريكاتورية لجاكوبوس براغماتر، المرسومة بالفحم على باب مطبخ عمي الكاهن على الأرجح، وبما أنه من المستبعد أن تذهب إلى *** لتراها، فستكتفي بصورة بالقلم.

إن جاكوبوس براغماتر، الذي يلعب دور القدر القديم في هذه القصة، كان في الستين من عمره: لقد ولد بتجاعيد في سن الستين، وقد ألقت به الطبيعة في قالب مهيأ خصيصاً ليكون نادلاً أو مدير مدرسة قروية؛ وكان في شبابه قد كتب كتابات غير هامة، في ورقة صغيرة من الرق بحجم صغير. وكان قد قدّمها إلى الماركيز دي ***، الذي كان حفيده بالمعمودية؛ وكان هذا الأخير، بعد أن نظر فيها باهتمام، قد صرخ عدة مرات: - ها هو فتى ليس بذراع واحدة! كان يحب أن يروي لنا هذه الطرفة، أو كما كان يسميها، هذه الحكاية؛ وفي أيام الآحاد، عندما كان يشرب إصبعين من النبيذ، وكان في مزاج جيد، كان يضيف، كنوع من التأمل، أن الماركيز دي *** كان بالفعل أكثر من لديه ما يقوله. وعلى الرغم من أنه كان يضيف إلى واجبات ناظر المدرسة المهمة، واجبات لا تقل أهمية عن واجبات الخادم وقارع الجرس وقارع الأجراس، إلا

أنه لم يكن يفخر بها. وفي وقت فراغه كان يعتني بحديقة عمي، وفي الشتاء كان يقرأ في الخفاء صفحة أو صفحتين من كتاب فولتير أو روسو، لأنه لم يكن من اللائق أن يقرأ في العلن لأنه كان أكثر من نصف كاهن، كما قال، لأن مثل هذه القراءة لم تكن لتليق في العلن.

لقد كان خفيف الظل جافاً، دقيقاً على الرغم من دقته، ولكنه لم يكن فيه شيء من الفطنة. ولم يكن يفهم شيئاً من الشعر، ولم يقع في الحب قط، ولم يبك مرة واحدة في حياته. ولم يكن لديه شيء من الخرافات الريفية الساحرة، وكان يوبخ بيرث دائماً عندما تروي لنا قصة عن جنية أو شبح. وأعتقد أنه كان يعتقد في أعماقه أن الدين لم يكن في أعماقه إلا خيراً للناس. باختصار، كان نثراً متجسداً، نثراً بكل ما فيه من ضيق، نثر باريه ولوموند، وكان ظاهره يطابق باطنه تماماً. كان هناك شيء فقير وضيق وغير مكتمل فيه يحزنك رؤيته ويجعلك ترغب في الضحك في نفس الوقت. كان رأسه، المتكتل بشكل غريب، يلمع من خلال بضع شعرات رمادية؛ وكان حاجباه الأبيضان يتدلسان كالشجيرات فوق عينين صغيرتين خضراوين بحريتين صغيرتين تومضان وتختبئان في تجاعيد أفقية على شكل غراب. وكان أنفه، وهو طويل كالناي الساكن، مليء بالثآليل وملطخ بالتبغ، يميل بحب على ذقنه. لذلك

عندما كانوا يلعبون الألعاب ويضطرون إلى تقبيل شخص ما ككفارة عن ذنبهم، كانت الفتيات يختارونه دائماً في حضور أمهم أو عشيقهم.

وقد عزز هذه المزايا الطبيعية بشكل عجيب زي صاحبها: فقد كان يرتدي عادة بدلة سوداء رثة، بأزرار واسعة كعلب السعوط، وجوارب وبنطلون غير مؤكد اللون، وحذاءً مشبكاً وقبعة ذات ثلاثة قرون كان عمي قد ارتداها لمدة سنتين قبل أن يهديها إليه.

يا جاكوبوس براغماتر الجدير، الذي لم يكن ليضحك عندما رآك قادماً من باب الحديقة وأنفك في مهب الريح، وأكمام معطفك العظيم ترفرف على جسمك كما لو كانت لفافة ورق خرج نصفها من جيبك! وقبّلنا كما هي عادته، ونكز وجنتي ماريا الممتلئتين بفرشاة لحيته، وربت على كتفي، وأخرج من جيبه قلباً من خبز الزنجبيل ملفوفاً في ورق مزين بالذهب والقش، فتقاسمه بيني وبين ماريا.

سألنا إن كنا قد أحسنّا التصرف .

وكمكافأة لنا وعد كل واحد منا بصورة ملونة؛ ورن جرس برتش في أعلى الدرج، ولم تعد خدمة عمي تمنعها، وجاءت لتجلس معنا بجانب النار.

وتركت ماريا في الحال الركبة التي كان براغماتر يمسكها بها على الرغم من نفسها تقريباً، لأنها رغم كل مداعباته لم تستطع أن تتحمله، وهرعت لتجلس في حضن بيرثي، وقصت عليها ما سمعناه، بل ورددت بعض أبيات من الأغنية الشعبية التي تذكرها.

واستمعت برتا إلى برتا في وقار ولطف، وقالت بعد أن انتهت من حديثها إنه ليس هناك ما يعجز الله عن فعله، و إن الصراصير هي سعادة البيت، و إنها ستظن نفسها ضائعة إذا قتلت واحدة منها ولو عن غير قصد.

فنهرها براغماتر بشدة على هذا الاعتقاد السخيف، وأخبرها أنه من المؤسف أن نغرس مثل هذه الخرافات القديمة في نفوس الأطفال، وأنه إذا استطاع أن يمسك بواحدة في المدخنة فإنه سيقتلها ليبين لنا أن حياة أو موت هذا الوحش البغيض لا أهمية له على الإطلاق.

وكنت أحب براغماتر إلى حد ما، لأنه كان دائماً يعطيني شيئاً، ولكنه في تلك اللحظة بدا لي أن له شراسة آكل لحوم البشر، وكنت أود أن أحدق فيه بسرور. وحتى الآن بعد أن أرهقتني عادات الحياة وسير الأمور على ما هي عليه الآن وأرهقت روحي وقست قلبي، كنت أعاتب نفسي على جريمة قتل ذبابة لأني وجدت، مثل توبياس الطيب، أن الدنيا تتسع لاثنين. وخلال هذا

الحديث كان الصرصور يلقي بنغماته العالية المهتزة في غير اضطراب على صوت براغماتر الباهت المكسور فيغطي عليه أحياناً ويحول دون سماعه.
فنفد صبر براغماتر، فركل بعنف على الجانب الذي يبدو أن الأغنية تأتي منه، حتى انقطعت عدة رقائق من السخام ومعها خلية الصرصور الذي ركض عبر الرماد بأسرع ما يمكن ليعود إلى حفرة أخرى. ولسوء حظه أن مدير المدرسة الحاقد رآه فأمسكه من رجله رغم صراخنا وهو يدخل الفجوة بين طوبتين. ولما رأى الصرصور أنه ضاع، تخلى بشجاعة عن ساقه التي بقيت بين أصابع براغماتر كالغنائم وغاص في الحفرة؛ وألقى براغماتر بقدمه في برودة أعصاب، وهو لا يزال يرتجف في النار، فرفعت بيرث عينيها إلى السماء في قلق، وشبكت يديها معاً. وأخذت ماريا تبكي؛ وقذفت ببراغماتر بأفضل لكمة سددتها في حياتي؛ ولكنه لم يكترث لذلك؛ غير أن وجه برتشي الحزين الجاد لم يلبث أن أوقفه لحظة على ما فعل؛ فانتابه بصيص من الشك؛ ولكن سرعان ما سيطرت عليه فولتيرية مرة أخرى، وأطلق برتشي بلكنة قوية لخصت توسله .

بقي لبضع دقائق؛ ولكنه لم يعرف كيف يتصرف، فانسحب.

وذهبنا إلى الفراش، وقلوبنا مثقلة بالنذر. رابعا: مرت عدة أيام حزينة ولكن لم يحدث شيء غير عادي يحقق مخاوف بيرثي، فقد كانت تتوقع كارثة ما: فالأذى الذي يلحق بالصرصار يجلب دائما سوء الحظ.

-وقالت: (سترى يا برغماتر أن شيئاً ما سيحدث لنا لم نكن نتوقعه، ففي خلال الشهر تلقى عمي رسالة من مكان بعيد مليئة بالطوابع والسواد من التدحرج. وأخبرته الرسالة أن بيت المصرفي ت***، الذي كانت أمواله مستثمرة فيه، قد أفلس للتو وعجز عن سداد ديونه لدائنيه.

وكان عمي قد تلف، ولم يبق له شيء سوى عطيته المتواضعة، وكان براغماتر، وقد اهتز نصفه في اقتناعه، يوبخ نفسه توبيخاً قاسياً. وكانت بيرث تبكي، بينما كانت تدور بنشاط مضاعف ثلاث مرات لتساعده بطريقة ما، أما الصرصور، مريضاً أو مغتاظاً، فلم يسمع صوته منذ المساء القاتل. وعبثاً حاول الصرصور أن يبدأ معه محادثة، وظل صامتاً في جحره. وسرعان ما تأثر المطبخ بهذا الانقلاب في الحظ، فانتقل إلى المطبخ. لقد تحول إلى بساطة إنجيلية. فوداعاً للسمك الأشقر الفاتح للشهية في فراشه من الجرجير، والحجل الفاخر مع مشد اللحم المقدد، وسمك السلمون المرقط مع معطفه من عرق اللؤلؤ المكسو بالنجوم الحمراء! وداعاً للأطباق الشهية التي لا

يعرفها إلا الراهبات ومربيات الكهنة! لقد كان قلب بيرث ينزف دماً عندما كان عليها أن تقدم هذه الأطباق البسيطة الخشنة، وكانت تضعها بازدراء على حافة المائدة وتشيح بنظرها عنها. وكادت تختبئ لإعدادها وكأنها فنانة موهوبة جداً في إعدادها وهي تعدها للعشاء. كان المطبخ، الذي كان مبهجاً ومفعماً بالحيوية في يوم من الأيام، قد أصبح الآن يسوده جو من الحزن والكآبة.

وكان يبدو أن توم الطيب نفسه قد فهم سوء الحظ الذي حل به: فقد ظل جالساً على ظهره أياماً طوالاً دون أن يسمح لنفسه بأدنى حركة؛ وحجب الوقواق صوته الفضي وصوته الخفيض جداً؛ وبدت القدور غير مشغولة وقد بدا عليها الملل حتى الموت؛ ومدت الشواية ذراعيها السوداوين كالعاطلين الكبار؛ ولم تعد أواني القهوة تأتي لتدردش بجانب النار: كان اللهب كله شاحباً، وقطرات الدخان الرقيقة تزحف بحزن على طول الصحن.

لم يستطع عمي رغم كل فلسفته أن يتغلب على حزنه. هذا الرجل العجوز الوسيم، السمين جداً، السمين جداً، المتورد جداً، الممتلئ بالحياة، بذقنه الثلاث وعجله الذي لا يزال متماسكاً؛ هذا الضيف المرح الذي كان يغني الأغنية الصغيرة بعد الشرب، لا شك أنك لم تكن لتعرفه فقد شاخ في شهر

أكثر مما شاخ في ثلاثين سنة. لم يعد لديه أي ذوق لأي شيء. والكتب التي كانت تمنحه أعظم متعة كانت ترقد منسية على رفوف المكتبة. فالنسخة الرائعة (الزفير) من اعترافات القديس أوغسطينوس التي كانت عزيزة عليه وكان يعرضها بفخر على كهنة الرعية المحليين، لم يكن يحركها أكثر من غيرها؛ فقد كان الوقت قد حان للعنكبوت أن ينسج شبكته على ظهرها.

لقد أمضى أياماً كاملة على كرسيه المصنوع من النسيج وهو يراقب الغيوم تمر من خلال النوافذ الماسية الشكل، غارقاً في بحر من التأملات المؤلمة؛ وكان يفكر بمرارة أنه لن يستطيع بعد الآن أن يجتمع في أيام عيد الفصح وعيد الميلاد مع أصدقائه القدامى في المدرسة الذين كانوا يتناولون معه الحساء الهزيل، ويفرحون لأنه لا يزال على هذه الخضرة والبهجة بعد أن احتفلوا معاً بأعياد الميلاد الكثيرة.

وكان عليه أن يكون مقتصداً في تناول تلك الزجاجات الجيدة من النبيذ القديم، البيضاء التي يعلوها الغبار، والتي كان يحتفظ بها تحت الرمال، في أعماق قبوه، والتي كان يحتفظ بها للمناسبات الخاصة؛ فما أن يشربها حتى لا يبقى لديه مال لشراء غيرها. وكان أكثر ما يحزنه أنه لم يكن قادراً على الاستمرار في صدقاته، وأنه كان مضطراً إلى أن يطرد فقراءه من المنزل وهو

يقول: (بارك الله فيك) ولم يكن ينزل إلى الحديقة إلا في فترات متباعدة؛ ولم يعد يهتم بمزارع براغماتر، وكان من الممكن أن تدوس على زهور عباد الشمس دون أن تجعله يقول: آه! ومهما مالت أزهاره برؤوسها لتلقي عليه التحية لم يرد عليها التحية، بل إن بهجة الفصل بدت وكأنها تزيده كآبة.

لقد كانت الرحلة إلى *** كانت بالنسبة له مهمة رهيبة كاكتشاف أمريكا: لقد أجلها ما استطاع، لأنه منذ ترك المكان لم يغادر قريته التي كانت مدفونة وسط الغابة كعش الطير، وقد كلفه فراق كنيسته بجدرانها البيضاء ومصاريعها الخضراء التي أخفى فيها حياته طويلاً عن أعين الناس الشريرة.

ولما رحل، أعطى برتش محفظة صغيرة تكفي لإعالة المنزل أثناء غيابه، ووعد أن يعود قريباً، وكان هذا كله طبيعياً جداً ولا شك، ولكننا تأثرنا تأثراً عميقاً، ولا أدري لماذا، فقد بدا لي أننا لن نراه مرة أخرى، وأن هذه هي المرة الأخيرة التي سيحدثنا فيها. فذهبت أنا وماريا معه إلى سفح التل ونحن نهرول بكل قوتنا على جانبي حصانه حتى نتمكن من البقاء معه مدة أطول. قال: (كفى يا صغيري لا أريدكما أن تذهبا أبعد من ذلك، فإن برتا ستقلق عليكما) ثم رفعنا إلى ركابه وقبلنا بحنان على وجنتيه، ثم انطلق، فتبعناه بأعيننا بضع دقائق.

وعندما وصل إلى قمة المرتفع، أدار رأسه لينظر مرة أخرى، قبل أن يغرق تماماً تحت الأفق، إلى برج كنيسة الرعية وسقف بيته الصغير.

ولما رآنا في نفس المكان لوح بيده في إشارة ودية كأنه يقول إنه مسرور؛ ثم واصل طريقه، وسرعان ما أخفاه منعطف في الطريق عن أعيننا، ثم غلبتني رعشة وسقطت الدموع من عيني. بدا لي أنهم أغلقوا غطاء التابوت عليه ودقوا المسمار الأخير.

-قالت ماريا بحسرة عظيمة: (يا إلهي يا عمي المسكين، لقد كان طيباً جداً!) والتفتت نحوي وعيناها الصافيتان تسبحان في سائل غزير صاف، فإذا بطائر العقعق جاثم على شجرة على جانب الطريق، وقد نشر جناحيه المتلألئين على مرأى منا، وطار بعيداً مطلقاً صرخات متنافرة ثم ذهب ليستريح على شجرة أخرى.

-قالت ماريا وهي تتشبث بي في جو من الشك والخوف: (لا أحب أن أستمع إلى العقعق) فأجبتها: (سأرميه بحجر حتى يصمت، تلك البهيمة الشقية) فتركت ذراع ماريا والتقطت حجراً ورميته على العقعق؛ فأصاب الحجر غصناً فوقه فخدش لحاء الشجرة: فقفز الطائر إلى أعلى وواصل صياحه الأجش الساخر.

-آه، هذا صرخ بصوت عالٍ جداً؛ فصرخت؛ هل تحاول أن تسخر مني؟ وانطلق حجر ثانٍ نحو الطائر؛ ولكن تصويبي كان خاطئاً، فمر الحجر بين الأوراق الأولى وسقط على الجانب الآخر في حقل من البرسيم.- قالت الفتاة الصغيرة واضعة يدها الرقيقة على كتفي: (دعه وشأنه) (لا نستطيع أن نوقفه) وهكذا واصلنا طريقنا وكان الجو رمادياً باهتاً، وعلى الرغم من أنه كان ربيعاً فقد كان هناك نسيم لاذع؛ وكان هناك حزن في الجو كما في الأيام الأخيرة من الخريف. كانت ماريا شاحبة؛ وكانت هالة خفيفة مزرقة تحيط بعينيها الواهنتين؛ وكانت تبدو متعبة ومثقلة أكثر من المعتاد؛ وكنت فخوراً بمساندتها؛ وعلى الرغم من أنني كنت متعباً مثلها تقريباً فقد كنت سأمشي ساعتين أخريين.

وبينما كنا نسير عائدين، لم يعد الدير يبدو كما كان، فقد كان في يوم من الأيام مبهجاً مفعماً بالحيوية، أما الآن فقد أصبح صامتاً ميتاً؛ لقد ذهبت روح البيت، ولم يعد سوى جثة هامدة، وهز براغماتر رأسه برغم عدم تصديقه في ذلك برغم عدم ثقته. كانت بيرث لا تزال تغزل، وكان توم جالساً أمامها وهو يهز ذيله في وقار، ويتابع حركات العجلة الدوارة.

ولولا النزهات التي كنا نقوم بها أنا وماريا في الغابة وعلى طول الحقول لاصطياد الخنافس وذبابة السدود لمللت حتى الموت، ولكننا لم نعد نسمع غناء الصرصور إلا نادراً، ولم نعد نسمعه، فبدأنا نعتقد أننا كنا ضحايا وهم. ولكننا وجدنا أنفسنا ذات مساء وحدنا في المطبخ، وكلانا جالس على نفس الكرسي الذي كان يجلس عليه يوم تحدث إلينا. كانت النار بالكاد تشتعل. رفع الصرصور صوته، واستطعنا أن نفهم بالضبط ما كان يقوله: كان يشكو من البرد. جثت ماريا على ركبتيها متأثرة بشكوى الصرصار، وبدأت تنفخ بفمها، وكان المنفاخ معلقاً على مسمار بعيداً عن متناول أيدينا.

كان من دواعي سرورنا أن نراها وقد انتفخت وجنتاها وأضاءهما وهج اللهب؛ أما بقية جسدها فكان غارقاً في الظل: بدت مثل أحد رؤوس الملاكين ذوي الأجنحة التي نراها في لوحات الكنيسة وهي ترقص في دائرة حول الأمجاد الغامضة للعذراء والقديسين.

وبعد بضع دقائق، بحفنة من الأغصان الجافة التي ألقيتها أنا، أضاء الموقد، واستطعنا أن نرى، على حافة جحره، صديقنا الصرصار يمد رجليه الأماميتين إلى النار، مثل يدين صغيرتين، ويبدو أنه كان يشعر بمتعة فريدة في تدفئة نفسه، وكانت عيناه اللتان كانتا كبيرتين كرأس الدبوس تشعّان بالرضا؛ وكان

يغني بحيوية مدهشة، وعلى لحن مبهج جداً، كلمات لم أستطع سماعها جيداً، ولم أتذكرها.

ومرت بضعة أشهر ولم يصل إلى عمي خبراً عن عمي أكثر مما لو كان قد مات! وذات مساء صعد براغماتر إلى المكتبة ليأخذ كتاباً وهو لا يدري ماذا يفعل ليقضي الوقت، فلما فتح الباب أطفأ تيار هواء عنيف شمعة؛ ولكن، وقد كان ضوء القمر، وكان يعرف أهل البيت، لم ير من المستحسن أن ينزل إلى الأسفل بحثاً عن الضوء، فذهب إلى الجانب الذي يعرف أن المكتبة فيه. أُغلق الباب بعنف، كما لو أن أحدهم دفعه وفتحه. ثم جاء شعاع قمر متلألئ أكثر إشراقاً من خلال زجاج النافذة الأصفر.

ولدهشته رأى براغماتر نوعاً غريباً من الأشباح يهبط على هذا الشعاع الضئيل من الضوء، مثل بهلوان على حبل مشدود: لقد كان شبح عمي، وبعبارة أخرى شبح ملابسه؛ لأنه كان هو نفسه غائباً: كان هناك شعر مستعار حل محل رأسه، وفي مكان عينيه لمعت، مثل ديدان الفسفور، زوج هائل من البيزنيس. دخل هذا الشخص الغريب الغرفة مباشرة واتجه إلى المكتبة؛ وبدا أن نعل حذائه مبطن بالمخمل، لأنه كان ينزلق على أحجار العلم دون أدنى صرير أو صوت خافت يوحي بأنه لمسها.

وبعد أن لمس بضعة مجلدات وحركها، أخرج كتاب القديس أوغسطينوس (الزفير) من لوحه وحمله إلى المنضدة؛ ثم جلس على الكرسي الكبير ورفع أحد قفازيه إلى الارتفاع الذي كان ينبغي أن يكون عليه ذقنه، وفتح الكتاب عند مقطع عليه علامة زرقاء كمن انقطع عن القراءة وبدأ يقرأ، وقلب الصفحات بنشاط، واختفى القمر؛ وظن براغماتر أنه لن يستطيع المواصلة، فبدأ في القراءة. ولكن عدسات نظارته التي كانت تشبه عيون القطط والبوم كانت مضيئة في ذاتها، تلمع في الظلال مثل الجمرة. انبعث منها بريق أصفر أضاء صفحات الكتاب، كما كان يمكن لشمعة أن تفعل. كان نشاطه في قراءته من النشاط بحيث أنه أخرج من جيبه منديلاً أبيض، ومرره عدة مرات على المساحة الفارغة التي تمثل جبهته، وكأنه كان يتصبب عرقاً غزيراً.... دقت الساعة تباعاً، بصوتها المتصدع: العاشرة، الحادية عشرة، منتصف الليل.... عند آخر دقة من منتصف الليل نهض الشبح وأعاد الكتاب الثمين إلى مكانه، كانت السماء رمادية اللون، والغيوم مشعثة تتدفق بسرعة من الشرق إلى الغرب، والقمر يسحب وجهه الأبيض من خلال دمعة؛ وشعاع من عينيه الزرقاوين يغرق الغرفة. وتسلق القارئ الغامض متكئاً على عصاه وخرج بنفس الطريقة التي دخل بها؛ وذهل القارئ الغامض من كثرة العجائب،

ومات من الخوف، واصطكت أسنانه، واصطكت ركبتيه المتعرّجتين ببعضهما فأصدر صوتاً جافاً كالحشرجة، ولم يعد الناظر الجليل قادراً على الوقوف على قدميه: وأصابته رعشة الحمى فارتجف شعره وسقط إلى الوراء. وسمع برتش السقوط فهرول مرعوباً فوجده ملقى على الأرض مغشياً عليه، ويده ممسكة بالشمعة المطفأة. ووجد براغماتر على الرغم من أفكاره الفولتيرية صعوبة بالغة في تفسير الرؤيا الغريبة التي راودته للتو، فقد كانت الحيرة تلف وجهه. غير أنه لم يكن في شك من أمره، فقد كان هو الضامن لنفسه، ولا يمكن أن يكون هناك أي خداع؛ فغرق في شرود عميق وظل ساعات طوالاً على كرسيه في وضع رجل حائر لا يعرف كيف يتصرف، وعبثاً جاء توم، القط الطيب، ليفرك شاربه على يده المتدلية وسألته برتشي بلهجة جذابة: (براغماتر، هل تعتقد أن الحصاد سيكون جيداً؟

4

لم يكن هناك أي خبر عن عمي، فقد رآه براغماتر ذات صباح وهو يحلق كالعصفور رمال طريق الحديقة التي كانت شموسه المفضلة تتكئ على حافتها في حزن على أقراصها الذهبية المليئة بالبذور السوداء؛ وبيده الظل أو ظل يده حاول أن يرفع إحدى الزهور التي ثنتها الريح، وحاول أن يصلح ما استطاع إهمال الأحياء.

كانت السماء صافية، وكان شعاع خريفي مبهج يضيء الحديقة؛ وكانت حمامتان أو ثلاث حمامات، جاثمة على السطح، ترفرف في الشمس؛ وكان نسيم لا مبالٍ يعبث ببضع أوراق صفراء، وريشتان أو ثلاث من الريش الأبيض المتساقط من أجنحة اليمام تحوم بهدوء في الجو الفاتر. ولم يكن الأمر يبدو كتمثيل شبح، وما كان لشبح ذكي بعض الشيء أن يظهر نفسه في مثل هذا المكان الإيجابي وفي مثل هذه الساعة غير الخيالية. سرير من الشمس، وبقعة ملفوف، وبصل مركب وبقدونس وحميض، في الساعة الحادية عشرة صباحاً، لا شيء يمكن أن يكون أقل من ذلك في ألمانيا.

وكان جاكوبوس براغماتر مقتنعاً هذه المرة بأنه لا سبيل إلى إلقاء اللوم في الظهور على تأثير القمر أو على تلاعب الضوء، فدخل المطبخ شاحباً مرتجفاً وأخبر بيرث بما حدث له للتو: (لقد مات سيدنا الطيب) قالت بيرث وهي تبكي: (دعونا نجثو على ركبنا ونصلي من أجل راحة روحه!) وتلا صلاة الجنازة معاً .

وكان توم، وهو قلق، يطوف حول مجموعتنا، ويلقي علينا بنظرات ذكية تكاد تكون خارقة للبشر بعينيه الخضراوين؛ وبدا وكأنه يسألنا عن سر حزننا المفاجئ، ولكي يلفت الانتباه إلى نفسه، كان يلفظ أنات صغيرة متذمرة متضرعة.- قالت بيرث وهي تربت بيده على ظهره بيدها: (وا أسفاه! توم المسكين!) قالت بيرث وهي تربت على ظهره بيدها: (لن تدفئ بعد الآن في الشتاء وأنت جالس على ركبتيه في الغرفة الحمراء الجميلة، ولن تأكل رؤوس السمك من زاوية صحنه!

نادراً ما كان الصرصور يغني. بدا البيت ميتاً؛ كان ضوء النهار شاحباً لا ينفذ إلا بصعوبة إلى النوافذ الصفراء؛ وتراكم الغبار في الغرف غير المأهولة؛ وكانت العناكب ترمي بشباكها من زاوية إلى أخرى، وتثير منفضة الريش بلا فائدة; أما لوح السقف، الذي كان في يوم من الأيام أزرق زاهياً مبهجاً، فقد

اكتسى ألواناً رصاصية؛ واخضرّت الجدران كالجثث، وسقطت المصاريع؛ ولم تعد الأبواب متصلة؛ وانحدر رماد الإهمال الرمادي بشكل رقيق ومهذب على كامل الداخل الذي كان يوماً ما مبهجاً ونظيفاً بشكل غريب.

كان الفصل يتقدم؛ كانت التلال الباردة قد ارتدى على أكتافها فراء الخريف الخمري بالفعل، وكانت ضفاف الضباب العريضة تتصاعد من قاع الوادي، وكان الرذاذ ينقش السماء الرصاصية بظلاله الضبابية المتقاطعة.

كان علينا أن نبقى في البيت أياماً متواصلة، لأن المروج الرطبة والدروب المتقطعة كانت تعني أننا نادراً ما كنا نحظى بمتعة التنزه. كانت ماريا قد بدأت تتضاءل بشكل واضح، وتصبح جميلة بشكل غريب، وكانت عيناها تتسعان وتضيئان ببزوغ فجر الحياة السماوية؛ وكانت السماء القادمة قد بدأت تشع فيهما. وكانتا تتدحرجان بهدوء على جفنيها الطويلين ككرتين من الفضة المصقولة، وقد أضاءت فيهما مسحة من ضوء القمر وأشعة من زرقة مخملية لا يستطيع أي رسام أن يصورها: وكان لون وجنتيها المتركز في أعلى عظامها في سحابة وردية صغيرة يزيد في الإشراق الإلهي لهاتين العينين الخارقتين اللتين تركزت فيهما حياة توشك أن تطير؛ وبدت ملائكة السماء كأنها تطل على الأرض من خلال هاتين العينين.

وباستثناء هاتين البقعتين الحمراوين، كانت شاحبة كالشمع البكر؛ وكان صدغاها ويداها الشفافتان تظهران شبكة دقيقة من العروق اللازوردية؛ وكانت شفتاها المتغيرة اللون مقشرتين في أغشية صغيرة من قشور: كانت مصابة ببرد الصدر.

ولما كنت قد بلغت من العمر ما يؤهلني للالتحاق بالمدرسة الثانوية، طلب مني والداي أن أعود إلى المدينة، خاصة وقد سمعا أن خالي قد توفي عندما سقط عن جواده في طريق وعر فانشق رأسه.

وكان في جيبه وصية وجدت معه جعلت بيرث وبراغماتر ورثته الوحيدين، باستثناء مكتبته التي كانت ستؤول إليّ، وأحد خواتم والدته الماسية التي كانت مخصصة لماريا. كان وداعي لماريا حزيناً؛ فقد شعرنا أننا لن نرى بعضنا بعضاً مرة أخرى. وقبّلتني على عتبة الباب وقالت في أذني: (إنه ذلك الشرير براغماتر الذي يلام على كل شيء؛ لقد أراد أن يقتل الصرصور. سنلتقي مرة أخرى في بيت الله. هذا صليب صغير صنعته لكِ من اللؤلؤ الملون؛ احتفظي به دائماً. وبعد شهر ماتت ماريا. توقف الصرصار عن الغناء من ذلك اليوم فصاعدًا: لقد اختفت روح البيت 196. لم ينج منها بيرث وبراغماتر طويلاً، وسرعان ما مات توم من الكسل والملل. ما زلت أحتفظ

بصليب ماريا المصنوع من اللؤلؤ. وبرقة ساحرة لم أدركها إلا فيما بعد، كانت قد استخدمت بعض شعرها الأشقر الجميل في خيوط الخرزات الزجاجية التي يتكون منها الصليب؛ حب طفولي عفيف نقي إلى درجة أنه كان يمكن أن يودع سره في صليب!

5

لقد تركت هذه المشاهد من طفولتي المبكرة في نفسي أثراً لم يخبو؛ فما زال شعوري بالموقد والمتع المنزلية أقوى ما يكون، فقد مرت حياتي كالصرصار، وأنا أرقب الموقد، وأراقب لهيب النار. كانت سمائي هي عباءة الموقد؛ وأفقي هو البقعة السوداء من السخام والأبيض من دخان؛ ومساحة أربعة أقدام حيث كان الجو أبرد من أي مكان آخر، هو كوني.

لقد أمضيت سنوات طويلة مع المجرفة والملاقط، وقد اكتسبت رؤوسها النحاسية تحت يدي بريقاً يشبه بريق الذهب، حتى صرت أعتبرها جزءاً لا يتجزأ من كياني. لقد تآكلت مقابض آلاتي النحاسية بقدمي، وأصبح باطن نعليّ مغطى بطلاء معدني من كثرة ملامستها لها .

إنني أحفظ عن ظهر قلب كل تأثيرات الضوء، وكل تفاعل اللهب؛ وكل الصروح الرائعة التي ينتجها انهيار جذع شجرة أو حركة شعلة النار، أستطيع أن أرسمها دون أن أراها، فأنا لم أخرج قط خارج هذا العالم المصغر، لذلك فأنا الخيار الأول لكل ما يتعلق بباطن الموقد؛ وليس هناك شاعر أو رسام قادر على رسم صورة أدق وأكمل من هذه الصورة. لقد تغلغلت في كل ما هو حميم

وغامض حول الموقد، وأستطيع أن أقول هذا دون فخر، لأنه دراسة وجودي كله. لهذا بقيت غريباً عن عواطف الإنسان، ولم أر من العالم إلا ما يمكن رؤيته من خلال النافذة. وانطويتُ على نفسي، ومع ذلك عشتُ سعيدًا لا أندم على الأمس ولا أرغب في الغد. كانت ساعاتي تتساقط واحدة تلو الأخرى في الأبدية، مثل ريش الطير في البئر، بلطف، بهدوء؛ ولو لم تنذرني الساعة الخشبية الموضوعة في زاوية الحائط بسقوطها بصوتها الأجش الحاد كصوت امرأة عجوز، لما لاحظت ذلك بالتأكيد.

فقط في بعض الأحيان، في شهر يونيو، في أحد تلك الأيام الدافئة الصافية عندما تكون السماء زرقاء كعين امرأة إنجليزية، عندما تداعب الشمس الواجهات السوداء المتسخة لبيوت البلدة بقبلة من ذهب، عندما يكون الجميع قد انسحبوا إلى أعماق شققهم وأسدلوا ستائرهم واستلقوا على الزرابي الناعمة وجباههم مخرزة بقطرات من العرق، أغامر بالخروج.

خرجت لأتمشى، مرتديًا ملابسي كالمعتاد، أي مرتديًا ملاءة وقفازًا ومربوطًا ومزررًا حتى العنق.

فأسلك جانب الشارع حيث لا ظلال، وأسير واضعاً يدي في جيبي، وقبعتي على أذني مائلاً كبرج بيزا، وعيناي نصف مغمضتين، وشفتاي تضغطان بقوة

على سيجارة يتدحرج دخانها الأشقر حول رأسي كعمامة؛ أمامي مباشرة دون أن أعرف إلى أين؛ غير عابئ بالوقت أو بأي تفكير آخر غير الحاضر؛ في حالة مثالية من الهدوء المعنوي والجسدي.

هكذا أمضي... أعيش لأعيش، لا أكثر ولا أقل من كلب يتمرغ في التراب، أو طفل صغير يركض في الرمال.

عندما تحملني قدماي لوقت طويل، وأكون متعباً، أجلس على جانب الطريق، مسنداً ظهري إلى جذع شجرة، وأترك بصري يتجول يميناً وشمالاً، تارة إلى السماء، وتارة إلى الأرض.

أجلس هناك لنصف يوم، لا أقوم بأي حركة، ساقاي متقاطعتان، وذراعاي متدليتان وذقني في صدري، أبدو كصنم صيني أو هندي، منسي في الطريق من قبل بونز أو برامين، ولكن لا تظنوا أن الوقت الذي أقضيه بهذه الطريقة هو وقت ضائع. إن هذا الموت الظاهر هو حياتي، وهذه العزلة وهذا الخمول الذي لا يطيقه أي شخص آخر، هما بالنسبة لي مصدر لذة لا يمكن تحديدها، فروحي لا تتشتت في الخارج، وأفكاري لا تهيم بين أشياء العالم، تقفز من شيء إلى آخر؛ كل قوتي الحركية، وكل قوتي الفكرية مركزة فيّ؛ فأنا أكتب

أبياتاً شعرية، وهي شغل ممتاز لرجل عاطل، أو أفكر في ماريا الصغيرة التي كانت على خديها بقع وردية.

زيارة ليلية

لديّ صديق واحد، يمكن أن يكون لديّ صديقان؛ لا أعرف اسمه، ولا أعرف منزله، ولا أشك في منزله. هل يجثم على شجرة؟ هل يختبئ في مقلع مهجور؟ نحن البوهيميين لسنا فضوليين، وأنا لم أعرف عنه أدنى شيء. ألتقي به في أماكن بعيدة، في أماكن غير محتملة، في طقس مستحيل .

واتباعاً لعادة الروائيين المألوفين، يجب أن أعطيك وصفاً لهذا الصديق المجهول: "وجه بيضاوي، وأنف عادي، وفم متوسط، وذقن مستدير، وعينان بنيتان، وشعر كستنائي؛ ملامح مميزة: لا شيء .

ومع ذلك، فهو رجل غريب جداً. يأتي إليّ دائمًا وهو يصيح مثل أرشميدس: "لقد وجدتها!" لأن صديقي مخترع .

فهو يضع كل يوم خطة لآلة جديدة. لو كان هناك نصف دزينة من الرجال مثله، لأصبح الإنسان عديم الفائدة من الخلق. كل شيء يحدث من تلقاء نفسه: الميكانيكا ميكانيكية تنتج عن ميكانيكا أخرى، وتصبح الأذرع والأرجل زائدة عن الحاجة. صديقي، بئر غرينيل الباريسي الحقيقي للعلم، لا يهمل شيئًا، ولا حتى الكيمياء. إن التنين الأخضر والخادم الأحمر والمرأة البيضاء

تحت إمرته؛ لقد تفوق على ريموند لول وباراسيلسوس وأغريبا وكاردان وفلاميل وجميع المبهمين .

-إذن فقد صنعت الذهب؟

-نعم، فأجاب بازدراء تام: (نعم، لقد صنعت ذلك الشيء الصبياني؛ لقد صنعت عشرين فرنكاً من النقود المعدنية التي كلفتني أربعين؛ كما أن الجميع يصنعون الذهب، ولا شيء أكثر شيوعاً منه. لقد صنعته؛ إنه خراب. وقد صنعت أيضاً نسيجاً خلوياً بتمرير تيار كهربائي في بياض البيض؛ وهو لحم متوسط، ويشبه العجة دائماً.

لقد حصلت على الدجاجة ذات الرأس البشري واللفاح المغرد، وهما وحشان صغيران كريهان؛ ومثل المعلم فاغنر حصل على قزم في قنينة زجاجية؛ ولكن، لا ريب أن النساء أمهات أفضل من القوارير. ما يشغلني الآن هو الخروج من الغلاف الجوي للأرض. ربما كان نيوتن مخطئاً، فقانون الجاذبية لا ينطبق إلا على الأجسام: الأجسام تسقط، أما الغازات فترتفع. أود أن أرمي بنفسي من فوق برج وأسقط في القمر. ثم اختفى صديقي فجأة حتى خيل إليّ أنه سقط في الحائط مثل كارديلاك، وذات مساء كنت عائداً من مسرح بعيد يقع في اتجاه القطب القطبي للشارع؛ وكان المطر قد بدأ يهطل من تلك

الزخات الدقيقة النافذة التي تنتهي باختراق اللباد والمطاط وكل الأقمشة التي تتذرع بأنها مقاومة للماء لتعبق برائحة الزفت والقطران. كانت السيارات المربعة في كل مكان، ما عدا، بالطبع، في الساحات. وعلى ضوء عمود إنارة مشكوك في أمره، وهو يقوم بحركات بهلوانية على الحبل السائب تعرفت على صديقي الذي كان يمشي بخطى متثاقلة كما لو كان الطقس أجمل طقس في العالم: قلت له وأنا أمرر ذراعي تحت ذراعه: "ماذا تفعل الآن؟

-أوه، أنا لا أعمل في التحليق، اطمئن، فأنا أحتقر الأوشحة؛ أنا أتدرب على الطيران، ولكن ليس على دمية محملة بالأجراس مثل جرينجوار في بلاط المعجزات. أنا أطير في الهواء، وقد استأجرت حديقة على جانب باريير دي إنفير، خلف اللوكسمبورغ؛ وفي الليل أمشي خمسين أو ستين قدماً في الهواء؛ وعندما أتعب أركب على أنبوب مدخنة. يا إلهي، لا شيء يمكن أن يكون أبسط من ذلك، وبهذا شرح لي صديقي اختراعه لي؛ والواقع أنه كان بسيطاً جداً، بسيطاً بساطة النظارتين اللتين توضعان في طرفي الأنبوبة فتعطيان لمحة عن عوالم مجهولة، بسيطاً بساطة البوصلة والطباعة والبارود والبخار.

قال صديقي وهو ينصرف عني: (لقد دهشت كثيراً لأني لم أكتشف هذا الاكتشاف بنفسي، فهذا هو الشعور الذي ينتابك عندما تواجه كشف العبقرية - احتفظ به سراً عني). لقد وجدت دعاية فعالة جداً لاكتشافي. إن إعلانات الصحف باهظة الثمن، وبالإضافة إلى ذلك لا أحد يقرأها؛ سأذهب وأجلس على سطح المادلين ليلاً، وفي حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً سأبدأ نزهة صغيرة للمتعة فوق منطقة أضواء الشوارع؛ نزهة سأمدها باتباع خط الجادات حتى ساحة الباستيل، حيث سأذهب لأقبل عبقري الحرية على عموده البرونزي. بعد أن قلت ذلك تركني الرجل الوحيد. ولم أره مرة أخرى لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر، وذات ليلة كنت قد أويت إلى فراشي ولم أكن قد نمت بعد .

سمعتُ ثلاث طرقات واضحة على نافذتي .

سأعترف بشجاعة أنني كنت خائفة بشدة. صرخْتُ في رعب شديد: "على الأقل لو كان لصاً"، ولكن لا بد أنه الشيطان، المجهول، الذي يطوف ليلاً، كويرينس كويم ديفوريت. ثم طرقت الباب مرة أخرى، ورأيت ملامح لم تكن غريبة عني تظهر من خلال الزجاج. نادى صوتٌ باسمي وقال: "افتح، الجو بارد جدًا، فنهضت. فتحت النافذة وقفز صديقي إلى داخل الغرفة. كان محاطاً

بحزام منتفخ بالغاز، وكانت الأربطة والزنبركات تمتد على طول ذراعيه وساقيه، ففك جهازه وجلس أمام النار التي أوقدت جمرها. أخذت كأسين وزجاجة كلاريت قديمة من الخزانة. ثم ملأت الكوبين، فابتلعهما صديقي شارد الذهن، أي أنه ابتلع محتوياتهما. كان وجهه مشرقاً. وأشرق نوع من الضوء الفضي على جبهته، وبدا شعره مثل هالة.

-قال بعد وقفة: (لقد نجحت تماماً يا عزيزي، لقد نجحت تماماً؛ فالنسر مجرد ديك رومي بجانبي. أنا أصعد وأنزل وأستدير وأفعل ما أريد، أنا ريموند ملك الهواء. لا يكلفني جناحاي أكثر من مظلة أو زوج من الجوارب. يا له من شيء غريب! عملية حسابية صغيرة بحجم يدك، خربشتها أنا على ظهر بطاقة، وبضعة زنبركات رتبتها أنا بطريقة معينة وسيتغير العالم. العالم القديم سيختفي؛ الدين، والأخلاق، والحكومة، وكل شيء سيتجدد. أولاً، مرتديًا زيًا متلألئًا، سأنزل مما كان يسمى حتى الآن بالسماء وأُعلن وصاياي العشرية الصغيرة. سأكشف للبشر سر الطيران. سأحررهم من الثقل القديم؛ سأجعلهم كالملائكة .

كثيرون هم الآلهة الذين لم يفعلوا الكثير. باختراعي، لن تكون هناك حدود بعد الآن، ولا جمارك أو حرس حدود، ولا أثمان ولا رسوم؛ وستصبح وظيفة

العاجز على جسر الفنون وظيفة رخيصة. اذهب واقبض على مهرب يمرر السيجار على ارتفاع ثلاثين ألف قدم فوق مستوى سطح البحر، لأنك بخوذة مملوءة بالهواء القابل للتنفس الذي أضفته إلى جهازي كملحق، يمكنك أن ترتفع إلى ارتفاعات لا تُحصى. لم تعد الأنهار والبحار تفصل بين الممالك .

انقلبت العمارة رأساً على عقب من الأعلى إلى الأسفل؛ فالنوافذ أصبحت أبواباً، والمداخن ممرات، والأسطح ساحات عامة. ستصبح الأفنية والحدائق مشوية مثل أقفاص الطيور. لا مزيد من الحروب؛ الاستراتيجية غير مجدية، لم يعد بالإمكان استخدام المدفعية، صوّبوا القنابل على الرجال الذين يمرون فوق السحاب ويمسحون بأحذيتهم على رؤوس ألسندور. بعد قليل من الآن، كم سنضحك على السكك الحديدية، على هذه الأواني التي تسير على قضبان حديدية وبالكاد تقطع عشرة فراسخ في الساعة!

وكان صديقي يتخلل كل جملة بكأس من النبيذ. وتحولت حماسته إلى حماسة ديثيرامب، وظل لمدة ساعتين يتحدث إلى ما لا نهاية بتلك النبرة واصفاً العالم الجديد الذي يتطلبه اختراعه بثروة من الألوان والصور التي تجعل تلميذ فوربيه يائساً. ثم بعد أن رأى أن الوقت بدأ يضيء، حمل كاميرته ووعد أن يأتي لزيارتي مرة أخرى قريباً. ففتحت له النافذة، فقفز إلى أعماق

السماء الرمادية، وبقيت وحدي أشك في نفسي وأقرص نفسي لأرى هل أنا مستيقظ أم نائم. وما زلت أنتظر زيارة صديقي المتقلب في زيارتي الثانية ولم أقابله في أي جادة حتى في الخارج. هل تركته آلته على الطريق؟ هل انكسرت رقبته أم غرق في محيط ما؟ هل اقتلع الطائر الصخري عينيه على قمم جبال الهملايا؟ لا أعرف حقاً .

سأعلمك بأول خبر يصلني عنه.

كلب الماركيز الصغير

1. في اليوم التالي للعشاء

لم يطلع النهار بعد عند إليانت ولكن الظهيرة قد حانت، الظهيرة فجر النساء الجميلات! ولكن إليانت كانت قد دعيت إلى العشاء في منزل البارونة حيث كانت في غاية الحماقة؛ ولم تأكل إليانت - على ما يقال - إلا القليل من بيض الدراج مع عصير لحم مع المرق وغيره من العقاقير؛ ولم تكد تغمس شفتيها الورديتين في رغوة نبيذ الشمبانيا وتشرب مقدار إصبعين من كريمة بربادوس؛ لأن إليانت كأي عشيقة صغيرة تتظاهر بأنها لا تعيش إلا على اللبن الخالص والحب. وكان الأب الخامس، الذي كان على العشاء، مسرفاً إلى حد الإعجاب، وكان الفارس قد لعب على القائد أكثر الخدع إبداعاً؛ وكان الشيء الكامل أن القائد الطيب لم يشأ أن يصدق أنه قد خُدع. وعند بزوغ الفجر، ذهبنا في العربة المكشوفة لتناول حساء البصل في بيت الحارس لنفتح شهيته على الطعام، وبعد الغداء اصطحب الرئيس إليانت إلى منزلها الذي لم تكن عربته قد وصلت بعد، وكانت إليانت متعبة بعض الشيء، وقد فتحت للتو عينها الجميلة المضروبة قليلاً، ورفرفت ابتسامة خافتة تحولت إلى نصف صياح على فمها الصغير الذي يشبه وردة على شكل قلب. إنها

تفكر في الأكلة التي كان يقدمها الدير وفي وقاحة الفارس، وفي أنف الرئيس المسكين الذي يزداد احمراراً؛ ولكن هذه الذكريات السارة سرعان ما تتلاشى وتندمج في فكرة واحدة، لأنه يجب أن نعترف بأنه مهما كان الدير مغازلاً وشهماً، ومهما أظهر الفارس من غنج وشهامة، فإن نجاح الأمسية لم يكن من أجلهما.

هذه الشخصية التي جُنَّ بها جميع السيدات والتي تشغل الآن أفكار إليانت حتى لا تجعلك تستهلك في البحث والتخمين وقتاً لا فائدة منه يمكن أن تستفيد منه بما هو أفضل من ذلك بكثير، ليست سوى كلب الماركيزة الصغير، وهو كلب البيشون الذي لا يضاهى والذي أحضرته في خمارها المحشو .

2. كلب البيشون فانفرلوش

ولكي نمدح هذا الكلب الرائع يجب أن ننتف ريشة من جناح الحب، ولا يمكن أن تكون يد النعمة وحدها هي التي تستطيع أن ترسم صورته؛ أما قلم لاتور فلا يمكن أن يكون له شيء أحلى من ذلك. إنه يدعى فانفرلوش، وهو اسم جميل جداً للكلب، وهو االذي يرتديه بشرف.

إن فانفرلوش لا يزيد حجمه عن قبضة يد سيدته المضمومة، ومن المعروف أن مدام لا ماركيز تملك أصغر يد في العالم؛ ومع ذلك فهو ضخم جداً للعين ويكاد يبدو كخروف صغير، لأن له شعيرات طولها قدم، وهي دقيقة جداً، ناعمة جداً، لامعة جداً، حتى أن ذيله يبدو كالفرشاة بالمقارنة. عندما يضغط بمخالبه قليلاً فإنك تندهش عندما لا تشعر بأي شيء على الإطلاق. يبدو فانفرلوش أشبه بقطعة من الصوف الحريري، بعينين بنيتين جميلتين وأنف وردي صغير، أكثر من كونه كلباً حقيقياً. ومثل هذا الكلب لا يمكن أن يكون إلا ملكاً لأم آمور التي فقدته في طريقها إلى سيثير، حيث وجدته على الأرجح الماركيزة التي تذهب أحياناً إلى هناك. انظروا إلى هذه الفراسة المثيرة والبارعة؛ ألا تغار روكسيلان من هذا الأنف المنحني بدقة يفصل بينهما في

الوسط شريط صغير مثل أنف آن النمساوية؟ ألا تعطي هاتان العلامتان النار يتان فوق العينين انطباعاً أفضل من انطباع القاتل الذي يقف في أكثر الطرق جاذبية؟

فقد فازت شخصية أخرى لم تتفوه بأي كلمة وكانت أكثر ظرفاً منهما، ولم تتكلف في التأنق والتجمّل، وأُعلن أنها كانت في قمة الرشاقة والأناقة، فازت بجميع أصوات الجمعية؛ واضطر الدير نفسه، رغم غيرته من هذه الميزة الاستثنائية إلى الاعتراف بها وتحية النجم الصاعد.

وذلك الصف المزدوج من الأسنان البيضاء، الكبيرة مثل حبات الأرز، والتي يبرزها أقل إزعاج بكل روعتها، فأي دوقة لا تحسد الدوقة على نقاوتها وتألقها؟ أما فانفرلوش الساحر فبالإضافة إلى ما يملكه من وسائل الإرضاء الجسدية فهو يملك ألف موهبة اجتماعية: فهو يرقص المينويت برشاقة تفوق مارسيل نفسه؛ ويعرف كيف يعطي الكف ويحدد الوقت: فهو يؤدي رقصة الكابريول للملكة وسيدات فرنسا، ويميز يمينه من شماله. وفانفرلوش مثقف جداً ويعرف أكثر مما يعرفه السادة في الأكاديمية؛ وإذا لم يكن أكاديمياً فلأنه لم يشأ أن يكون كذلك؛ ولا شك أنه ظن أنه سيكون بارزاً بغيابه .

ويزعم الأبي أنه يجيد اللغات الميتة كما يجيدها الترك، وأنه إذا لم يتكلم فذلك محض خبث من جانبه وإغضاب لسيدته؛ وإلى جانب ذلك فإن فانفرلوش لا يملك النهم الحيواني الذي يملكه الكلاب العادية. فهو شره جداً، ذواق جداً جداً وآكل نهم؛ فهو لا يأكل شيئاً على الإطلاق إلا كمية صغيرة من المخ المصنوع خصيصاً له، ولا يشرب إلا قدراً صغيراً من القشدة يقدم إليه في صحن ياباني. غير أنه عندما تخرج عشيقته إلى العشاء يوافق على أن يمص قطعة من جناح الدجاج ويمضغ قطعة حلوى؛ ولكن هذا معروف نادر لا يفعله للجميع، وعليه أن يحب الطاهي. وليس لفانفرلوش إلا عيب واحد صغير، ولكن من هو الكامل في هذا العالم؟ فهو يحب الكرز بالبراندي والتبغ الأسباني الذي يأكله من وقت إلى آخر؛ وهي عادة يشترك فيها مع أمير كوندي.

وما أن يسمع صرير مفصل صندوق القائد الذهبي حتى ترى كيف يقف على رجليه الخلفيتين ويضرب بذيله في الأرض؛ وإذا لم تراقبه الماركيزة الغارقة في لذة الويست أو الروكسي عن كثب قفز على حضن الآب الذي يعطيه ثلاث أو أربع حبات كرز مسكر. وبهذا يصبح فانفرلوش، الذي لا يملك رأساً قوياً، رمادياً مثل سويسري وقائدي كنيسة، ويقوم بأطرف التعرجات في

العالم، ويصبح شرساً بشكل غير عادي تجاه عجل الفارس الغائب قليلاً، والذي يضطر للحفاظ على ما تبقى منه إلى الضغط بساقيه على كرسي بذراعين. لم يعد كلبًا صغيرًا، بل أصبح أسدًا صغيرًا، ولا يمكن للماركيز وحدها أن تفعل معه شيئًا. وعليك أن ترى ما يقوم به من طرائف وتمردات قبل أن يسمح لنفسه بأن يوضع في كنفه أو يستلقي في بيت الكلب المصنوع من خشب الورد والمبطن بالساتان الأبيض والمبطن بالشنيل الأزرق. ولسنا ندري كم من جنحة من جنح فانفرلوش كانت سبباً في ضرب شريكه (آبِه) على مفاصله بمروحة وصقر .

3. لوحة باستيل

رسمها لاتور إذا لم يكن الانتقال من كلب جميل إلى امرأة جميلة مفاجئاً جداً، فاسمحوا لي أن أرسم لكم لوحة خفيفة بقلم رصاص من إليانت.

لا يمكن إنكار صغر سنها، فهي لا تزال في العاشرة من عمرها بما يكفي لإخبار سنها دون أن تكذب، وعدد ينابيعها قليل. أوريا ميديوكريتاس ما زلنا نعرف أين هي قطع دميتها الأخيرة، وهي طفولية إلى درجة أنها تقبل دون تردد أدوار العجوز والأرملة والجدة في الأمثال وفوازير المجتمع .

وسعيدة هي إليانت التي لا تخشى أن يخطئ أحد في تقمص الشخصية التي تجسدها، والتي تستطيع أن تتجمل بجرأة دون أن تخاطر بأن تؤخذ تجاعيدها الزائفة على أنها حقيقية! ومن ناحية أخرى فإن مدام لا بريزنت التي بدأت أنفها يسخن بشكل واضح، مما أثار ارتياح أصدقائها بشكل كبير، والتي بدأت تقطع نفسها إلى الشيطان، تجد أدوار الأرملة الشابة في الخامسة والعشرين من عمرها أكبر من أن تناسبها.

وتزوجت إليانت التي ولدت ولم تر إلا صحبة طيبة للغاية من الكونت دي *** وهي في الخامسة عشرة من عمرها، وكانت قد غادرت الدير لتوها ولم

تكن قد رأت خاطبها الذي بدا لها وسيماً جداً وودوداً جداً؛ وكان أول رجل رأته بعد الأب المعترف. وكان الكونت قد جاوز الأربعين من عمره؛ وكان في عهد الملك الآخر رجلاً من رجال الرويه، وهو رجل ذو حظ وافر ومغامر. وهو مثالي بالنسبة لزوجته، ولكن بما أن له عملاً مستقراً في مكان آخر، وخطوبة رسمية، فإن علاقته الحميمة بإليانت لم تكن أبداً علاقة جدية جداً، وكانت الكونتيسة الشابة تتمتع بكل الحرية التي تتمناها، لأن الكونت لا يتأثر بأي حال من الأحوال بالغيرة وغيرها من التحيزات القوطية.

وليس في وجه إليانت أي من تلك الانتظامات الإغريقية التي يتفق الجميع على أنها جميلة تماماً، ولكنها في الأساس لا تسحر أحداً؛ فلها أجمل عينين في العالم ومجموعة فائقة من البرونيل؛ وحاجبان دقيقان متقنان يمكن أن يحسبهما المرء قوس كيوبيد، وأنف صغير نذل يناسبها تماماً، وفم لا تريد أن تضع فيه إصبعك الصغير: وأضف إلى ذلك شعرها الممتلئ الذي يصل إلى عرقوبيها عند فكه إلى ساقيها، وأسنانها النقية المتقنة الصنع، والمرتبة ترتيباً حسناً، حتى أنها لا تكاد تجبر الألم على الانفجار ضحكاً لتظهرها، ويدها النحيلة الممتلئة في آن واحد، وقدمها التي تناسب خف سندريلا، فتكون لديك مجموعة رائعة جداً. إليانت، بكل كمالها الجميل، كبيرة في

عينيها فقط. يكمن سحر إليانت الرئيسي في رشاقتها الشديدة وطريقتها في ارتداء أبسط الأشياء. ففستان البلاط الكبير يناسبها جيداً، ولكن ثوب الإهمال يناسبها أكثر. ويزعم بعض الطائشين أنها تبدو أفضل في الكتان. وهذا الرأي لا يبدو لنا أنه يفتقر إلى الاحتمال .

4. البومبادور:

تتكئ إليانت على مرفقها، وهو نصف مدفون في وسادة من أجود أنواع القماش الهولندي المزركش بالغرزة الإنجليزية .

إنها تحلم بكمال فانفرلوش الذي لا يمكن تخيله، وتتنهد عندما تفكر في سعادة المركيزة؛ و إليانت مستعدة بكل سرور أن تعطي ثلاثة فرسان وطوقين صغيرين مقابل هذا البيشون العجيب.

وبينما هي تحلم، دعونا نلقي نظرة على غرفة نومها، خاصة وأن هذه الفرصة لوصف غرفة نوم امرأة جميلة في ذلك الوقت لن تتاح لنا مرة أخرى قريباً، وقد أصبحت البومبادور الآن على الموضة. السرير الخشبي المنحوت المطلي باللون الأبيض والمطلي بالذهب المطفأ والمصقول، يقف على أربع قوائم مدارة بعناية غريبة. أما مساند الظهر المنحنية التي تعلوها مجموعة من الحمائم التي تنقر بعضها بعضاً فهي مبطنة بنعومة لتمنع النائمة الجميلة من أن تصطدم برأسها في حلم حي يقترب فيه الوهم من الواقع.

ويقف السرير الخشبي المنحوت المطلي باللون الأبيض والمطلي بالذهب غير اللامع والمصقول على أربعة أرجل مدارة بعناية غريبة. أما مساند الظهر

المنحنية التي تعلوها مجموعة من الحمائم التي تنقر بعضها بعضاً، فهي مبطنة بنعومة لتمنع النائمة الجميلة من أن تصطدم برأسها في حلم حي يقترب فيه الوهم من الواقع. هناك سماء مزينة بأربع عناقيد كبيرة من الريش ومثبتة في السقف بسلك ذهبي تدعم زوجاً مزدوجاً من الستائر من قماش بلون الحوريات مغطى بالفضة. وفي الخلف، توجد مرآة كبيرة مزينة بالورود والأقحوان المقطوع بشكل جميل؛ وتعكس هذه المرآة المواقف الرشيقة للكونتيسة وتظهر مفاتنها بإظهار ما لا ينبغي أن يُرى. وعلاوة على ذلك، فإنها تضيء هذه الزاوية المظلمة إلى حد ما وتضفي نفحة من الهواء المنعش على الغرفة. أما إليانت فقد انقلبت بطريقة لا تحتاج معها إلى أن تحيط نفسها بحكمة الغموض؛ فهي لا تحتاج إلى أنصاف الأضواء والألوان الخافتة.

وعلى منضدة قاعدة، في مصباح ليلي قديم من نوع سيفر ترتجف نجمة صغيرة خجولة، وقد أذهبت هالتها الليلية أشعة الشمس المبهجة التي تتسلل من خلال فجوات الستائر والمصاريع؛ إذ كان الظن أن السيدة ستعود مبكراً من الأوبرا، وقد أعدت العدة لوقت نومها كالمعتاد.

تصوّر قمم الأبواب، بلون أرجواني ناعم أحادي اللون، مغامرات أسطورية وشجاعة. وقد وضع الرسام في هذه التراكيب الكثير من الحماسة والجاذبية التي من شأنها أن تبعث، بالطريقة اللطيفة والخفيفة التي تلامس بها هذه التراكيب أفكاراً مبهجة ومبهجة في أكثر الناس جموداً وتزمتاً. أما المعلقة فهي مثل الستائر، مثبتة معاً بواسطة قماش وحبال جيدة وعقود فضية. ولهذا النسيج ميزة، من خلال النضارة الشديدة لظلاله، أنه يجعل كل أولئك الناس الذين لا يملكون مثل إليانت بشرة يمكن أن تصمد أمام أي مقارنة، يبدون مرعبين ومضيئين مثل الغاضبين .

وقد اختارت الكونتيسة الشابة هذا الظل بخبث لتثير غضب اثنتين من أعز صديقاتها اللتين حولتهما إساءة استخدام اللون الأحمر إلى اللون الأصفر كالسفرجل، ويبدو أنها تستقبلهما دائماً في هذه الغرفة. وتملأ المرايا ذات الإطارات الجميلة الفراغ بين النوافذ؛ ولا يمكن أن يكون هناك الكثير من المرايا في غرفة امرأة جميلة؛ ولكني أيضاً أود أن أكسر بسرور تلك التي تتعرض لوجوه سخيفة مزدوجة. ألا يكفي أن أرى الرئيس والأرملة العجوز مرة واحدة؟ رف الموقد مليء بالمجوس الصيني ومجموعات البسكويت والخزف. مزهريتان كبيرتان بلون أخضر متشقق ومركب بشكل غني تزينان

الزاويتين. وتقف ساعة بول الرائعة المطعمة بصدف السلحفاة وعقربها على مسار الساعة الثالثة على قاعدة ذات روعة مماثلة ومزينة بأوراق الشجر الذهبية .

أمام الموقد، حيث يتوهج لهب كبير يتوهج في الموقد، ينثني واقي النار الفضي المزخرف عدة مرات وينكسر بزاوية حادة. وتكتمل المفروشات في هذا الجانب بشاشات دمشقيّة ذات خشب منحوت ودوقة ونول تطريز على شكل أسطوانة.

وغطاء من الورنيش الصيني الأصيل، مزين بمالك الحزين ذي البلشون الطويل، والتنين المجنح، وأشجار النخيل والصيادين الذين يحملون الغاق على قبضاتهم، يمنع رياح الكوليك الغادرة من اختراق هذا الملاذ من النعم؛ وسجادة تركية جلبها السيد لو كونت الذي كان سفيراً في يوم من الأيام لدى الباب العالي تكتم صوت وقع الأقدام، ومصراعاً مزدوجاً مبطنًا يمنع الأصوات الخارجية من اختراق هذا الملاذ من الراحة والحب. هكذا كانت غرفة نوم الكونتيسة إليانت ونرجو أن يغتفر لنا هذا الوصف الطويل نوعاً ما نظراً لأدب الدلال الذي نعيش فيه، علماً بأننا كنا نرجو أن نغفر لنا هذا

الوصف الطويل، علماً بأننا كنا نود أن نطيله مرتين ولا يمكن لأحد أن يضعنا في السجن بسبب ذلك.

5. محادثة

فانشونيت، خادمة مدام إليانت، تدخل على أطراف أصابعها، وتتقدم على استحياء إلى السرير، وترى أن إليانت لم تعد نائمة: مدام... إليانت. - حسناً إذاً! فانشونيت، ما الأمر؟

هل هناك حريق في المنزل؟ تبدين خائفة جداً.

فانشونيت. - لا يا سيدتي، الحريق ليس في البيت، بل أسوأ من ذلك: السيد الدوق ألسندور الذي يقف في الحراسة منذ ساعتين، والذي يود الدخول.

إليانت. - يجب أن تخبره أنني غير مرئية، وأنني أعاني من صداع رهيب، وأنني لست هناك.

فانشونيت. - لقد قلت له كل ذلك، ولكنه لا يريد أن ينصرف، فهو يقول إنك إذا كنت في الخارج فعليك أن تعود، و إذا كنت في البيت فعليك أن تخرج في النهاية. إنه مصمم على حصار بابك .

إلياندي. - يا له من رجل فظيع!

فانشونيت. - سيحضر خيمة ومؤن ليستقر بشكل دائم في صالونك. إن رغبته في التحدث إليك كبيرة جداً لدرجة أنه سيتسلق من النافذة بدلاً من ذلك.

- يا لها من نزوة غريبة! هذا جنون لا معنى له! ما الذي يمكن أن يقوله لي؟ فانشونييت، كيف أبدو اليوم؟ أعتقد أنني أبدو قبيحة بشكل مخيف؛ يبدو أنني أبدو مثل مدام دي ب...

فانشونييت. - على العكس، لم تكن السيدة أكثر سحراً من الآن؛ فبشرتها نضرة بشكل مثير للإعجاب.

إليانت. - اضبطي مزماري قليلاً، واذهبي وأخبري الدوق بأنني موافقة على استقباله .

6. زقاق "إليانت"

"إليانت"، الدوق "ألسندور."

-يا إيليانتي الذي لا يضاهيه أحد، ترى أمامك أكثر رعاياك تواضعاً الذي دفعته رغبته الكبيرة في أن يضع إجلاله على درجات عرشك إلى ضرورة صعبة وهي أن يجعل نفسه غير مرحب به .

إليانت. - أيها الدوق، سأشير لك إلى أنني مضطجع ولست على العرش، وفي الوقت نفسه سأطلب عفوك عن عدم استقبالك واقفاً .

ألسيندور. - أليس السرير هو عرش النساء الجميلات؟ أما عن عدم استقبالي واقفاً، فأرجو أن تسمح لي أن أعتبره معروفاً .

إليانط. - في الواقع، أنت تجعلني أفكر في ذلك، أنا أمنعك يا ألسيندور أن تعتبره معروفاً أن تدخل إلى زقاقي؛ فأنت رجل شديد الحساسية، بحيث يجب على المرء أن يحتاط معك .

-أيها الوغد، لقد كنت دائماً بالنسبة لي من أحقر الفضائل، ومع ذلك فالله يعلم أنني كنت دائماً أحتفظ لك بأشد الشعلة حيوية. أنت تجعلني أشعر بأشياء...

إليانت. - ألسندور، عندما تتكلم عن لهيبك، أضيء عينيك قليلاً وحاول أن تتكلم قليلاً من الجفاء؛ يبدو أنك تخشى أن يؤخذ بكلامك.

ألسندور - أنت تقول مثل هذه الأشياء الفظيعة؛ إليانت، إن الأمر يتطلب عشرة أضعاف ما يتطلبه فقدان رجل ذي سمعة طيبة .

لحسن الحظ أنا مغطى من هذا الجانب

سأريك... إليانت. - لا نريد أن نرى. ألسندور، يأخذ كتاباً من الطاولة

-ما هذا؟ إنتاج جديد آخر؟

بعض من الرابسوديات؟ المؤلفون حقا حيوانات شريرة. هل تتلقى مثل هذه الأنواع؟.

-يا إلهي، لا لدي شاعران ينامان في الإسطبل ويأكلان في المخزن. ولديهما فانشونيت، يسميان آيريس وفينوس، أعطوني هذا الخليط. ألسندور، يقترب من السرير .

-في الحقيقة، إن ثوب النوم يناسبك تماماً، وأنت تبدين فاتنة في ثوب النوم .

إليانت. - أوه لا، أنا قبيحة بشكل مخيف. ألسندور.

- أستميحك مليون عذر لإنكاري لك، ولكن هذا أفظع زيف. حتى لو قطعت رقبتي معك، فلن أتراجع .

إلياندي. - لا بد أن وجهي مقلوب رأساً على عقب، فأنا لم أنم طرفة عين.

- لديك نضارة العابد والمحب. أجد عينيك مضيئة بشكل خاص. هل كنت في عشاء صغير عند البارونة؟ يقولون أن كل شيء كان في أفضل حالاته. كان الآبي على وجه الخصوص لا يقدر بثمن، هكذا يقولون. إنني أموت من الأسى لعدم قبول دعوة هذه البارونة العزيزة، ولكن لا يمكنك أن تكون في كل مكان. إن ما أموت من الأسى لا يصدقه العقل، فأنا أموت من الخيل؛ إن عدائي في حالة ركض ولا أدري كيف سأقاوم. هل كنت في تلك الحفلة؟

-لقد جاءت الماركيزة مع كلب صغير لم أكن أعرفه، كلب من أجود أنواع الكلاب، لم أرَ مثله من قبل! اسمه فرانفرلوش. يا لحب الكلب! دوك، ما الذي جعلك ترغب برؤيتي لهذه الدرجة؟

ألسندور - أردت أن أراك؛ أليس سبباً ممتازاً؟

إلياندي. - جيد جداً لكن ألم يكن لديك شيء أكثر أهمية لتخبرني به؟

-بحق السماء، لقد أردت أن أقدم لك إعلاناً رسمياً وأثبت نفسي كخاطب لكِ .

إلياندي. - أنت مسرف أيها الدوق، أنت تعلم كما أعلم أنا أنك لست مغرماً على الإطلاق. "ألسندور ."

-آه، يا إليانت الجميلة، تخيلي قلبي مثقوباً من الداخل والخارج، انظري خلف ظهري وستري رأس السهم .

إليانت. - يا لها من فراسة مثيرة للاهتمام؛ شعيرات طويلة كهذه، وعلامات نارية وسيقان ملتوية. يا إلهي! أعتقد أنني سأصاب بالجنون إذا لم يكن لديّ كلب من هذا القبيل؛ ولكن لا يوجد أي منها!

ألسندور. - ذيل البوق.

ألسندور. - أنا أعشقك !

إليانت أذنين مجعدتين

.ألسندور. - أيتها المرأة الرائعة!

إليانت. - أيها الحيوان الساحر! يقول الأب إنه يتحدث العبرية. يا إلهي، كم أنا تعيسة! إنه يرقص بشكل جيد! أنا أكره تلك الماركيزة؛ إنها ماكرة ولديها شعر مزيف .

ألسندور. - ماذا نفعل لنواسيك؟ هل نعبر البحر، ونقفز بكلتا قدمينا فوق أبراج نوتردام؟ هذا سهل، تحدثي .

إلياندي. - أنا لا أريد سوى فانفرلوش؛ لقد كانت لي رغبة واحدة عنيفة في حياتي، ولا أستطيع أن أشبعها. أعتقد أنني سأصاب بالقيء؛ آه، أعصابي بدأت تؤذيني بالفعل. أيها الدوق، مرر لي قطرات الجنرال لاموثي خذ، هذه الزجاجة التي على الطاولة... أشعر بالإغماء.

" ألسندور"، اجعله يشم الزجاجة .

-ياله من انعطاف رائع في حلقك !

إنها من مالين أو بروكسل، إن لم أكن مخطئاً

إليانت. - ألسندور! توقف، أنت تزعجني بشدة. آه، أنا مستعدة لتقبيل الشيطان، زوجي نفسه، إذا ظهر هنا مع فانفرلوش تحت ذراعه! ألسندور. - إنه قوي! في نفس الحالة، هل سأعامل أسوأ من الشيطان وزوجك؟ إليانت. - لا، ربما أفضل.هذه كلمتي الأخيرة اتصلي بفانشونيتي لتأتي وتلبسني ملابسي.

ألسندور. - أنا أطيعك يا سيدتي !حسناً

لقد قضي الأمر، لقد أصبحت لص كلاب، سامحوني يا أسلافي! جوبيتير قد حول نفسه إلى إوزة وثور؛ كان ذلك ليزداد ضلالاً. الْحُبُّ يَهْوَى أَنْ يَخْفِضَ أَعْلَى شَجَاعَةٍ... إِلَى هَذِهِ الْقِيَاسَاتِ الْقَاسِيَاتِ

-وداعاً !ليكن كيوبيد وعطارد معك احذري أن ترجعي مع أحد غير فانفرلوش، و إلا فسأقول لكِ إنني سأستقبلكِ كنمرة لها سناً ومخالب جميلة. ها هي ذي فانفرونيت، مساء الخير أيها الدوق .

7

- وألقى ألسندور بنفسه على أريكة من الأرائك وأطلق تنهيدة متزنة ومزركشة يمكن ترجمتها على النحو التالي "(ليأخذ الشيطان كل هؤلاء المتأنقين المتكلفين المتملقين بخيالاتهم المسرفة! ثم أحنى رأسه إلى الوراء، وحدق في زخارف السقف، ومد يده بضعف نحو حبل الجرس المخروطي. لوّح به عدة مرات، لكن لم يأتِ أحد. ولما كان ألسندور بطبيعته نشيطاً بطبيعته ولم يكن يحتمل أدنى تأخير، فقد علق نفسه بكلتا يديه على حبل الجرس الذي انقطع. وبدأ ألسندور، وقد حُرم من وسيلة الاتصال هذه بعالم المخزن وغرفة المؤن وغرفة الانتظار، وصمم على عدم النهوض من كرسيه، في إحداث جلبة رهيبة.

"جيروفليه"، "سيميلور"، "مارميلاد"، "جالوبان"، "شامبانيا"، شخص ما! لا يوجد شخص ذو جودة في فرنسا أسوأ مني! سوف تحصل على مائة ضربة بالعصا! احذر من أكتاف أول شخص يدخل! ها! أيها الأوغاد البيض والسود، سأرسل بكم جميعاً إلى القوارب وأشنقكم وأشويكم أحياء كما تستحقون. سأوصي بكم إلى رئيس الشرطة العسكرية، تأكدوا من ذلك. في النهاية،

هؤلاء المهرجون سيجعلونني أخرج عن شخصيتي شمبانيا، باسك، جالوبين، مارميلاد، سيميلور، جيروفليه، هولا، الجلادون!" الدوق ألسندور الذي خنقه الغضب وخنقته حزمة جديدة من الانتقادات اللاذعة التي تصاعدت في حلقه، سقط كما لو كان منهكاً على ظهر كرسيه.

انفتح باب غرفة النوم، وفي النهاية مر رأس زنجي كبير مستدير وممتلئ، وكان أكثر امتلاءً لأن فكيه كانا ممتلئين تماماً بطائر السمان الذي سرقه من المطبخ، والذي قطع صراخ ألسندور المحموم عملية ابتلاعه .

لقد كان سيميلور، الزنجي المفضل لدى الدوق. وكان أنف جيروفليه الحاد يبرز من خلفه على استحياء قال الزنجي سيميلور بنبرة نصفها أبوي ونصفها الآخر خائف، وهو يحاول أن يحرك لسانه العريض خلال الخبز الغليظ وعجينة اللحم التي كانت تحشو فمه: آه، أتظن أيها الزنجي أنني كنت أناديك يا قاطع الطريق؟ سأسلخ جلدك حياً وأقلبك من الداخل إلى الخارج كالبذلة القديمة، لأرى إن كانت بطانة جلدك سوداء مثل القماش. ! خذ أيها البائس وأخذ الدوق، وقد اشتد غضبه وهو يزفر، مصباحاً من على المنضدة ورماه على رأس الزنجي. وسقط سيميلور الذي اعتاد هذا النوع من التصرفات على وجهه على السجادة وهو يصيح في شفقة: (أي! أي! أي! أيها السيد الصغير،

أعلم أني ميت!) وصنع وجهاً مهرجاً قلما يفشل: (لقد اخترقتني الزندرة. أشعر بثقب كبير. أنا ميت بالتأكيد هذه المرة .

كويك!

-هيا أيها الأحمق"، قال ألسندور وقد زال غضبه فركله ركلة قوية في مؤخرته: "أكمل تصرفاتك الغريبة؛ وأنت يا جيروفليه، بما أنك هنا فلتعوضني عن ذلك، لأنني لا أريد أن أخرج اليوم أكثر من ذلك. ارفع شعري في الليل يا جيروفليه، وأنت يا سيميلور اذهب ودافع عن الباب ضد الجميع. ومع ذلك، إذا كانت هناك سيدة ترتدي قلنسوة سوداء، ذات قدم صغيرة ويد بيضاء، فلتصعد. ولكن بحق الله !

لا تدعهم يخطئون فيدخلون إلمير أو زولميه وهما صنفان يوقعانني في الخطأ، وقد اكتفيت منهما لثمانية أيام" وبعد أن قال ذلك استقر ألسندور في دوقة، وبدأ جيروفليه في استقباله. ووقف سيميلور أمامه وهو يخرج دبابيسه كلما دعت الحاجة إليها، ويخرج لسانه متجهما، مكشرا عن وجهه ويشد ذيل قرده الذي كان في كل مرة يطلق عواءً حامضًا، يجعل أسنانه تصطك كالمنشار.

8. الحيرة:

يجب أن أعترف بأن الدوق ألسندور، على الرغم من أنه كان يملك مائتي ألف جنيه من المعاشات، وساقاً رشيقة وأسناناً حسنة، لم يكن لديه أدنى اختراع، وكان فقيراً فقراً يرثى له في الخيال. أضف إلى هذا الثقة التي يمكن أن تمنحها ثروة قدرها مائتا ألف جنيه من الأراضي الجيدة، والاسم العظيم، واللقب الرفيع، والأمل في أن يلقب قريباً بلقب كبير إسبانيا من الدرجة الأولى لشخص لا يسوء صنعه في نفسه، وستفهم بسهولة أن الدوق كان يمكن أن يمر في عالم معين كرجل عبقري إلى أبعد الحدود.

أما ألسندور الذي كان يظن نفسه مضطراً إلى الكونتيسة إليانت لأنها كانت عصرية ومن الطبيعي أن تذهب كل النساء العصريات إلى الرجال العصريين، فقد كان في بادئ الأمر مفتوناً جداً بأن هبة فانفرلوش قد جعلت الشرط الوحيد لسعادته.

لقد كان يخشى أن يتكبد كل عناء في مسألة شرعية وخاطب معترف، وكان يخشى أن لا يجنبه إليانت في سبيل أن يجعل انتصاره أكثر دوياً أن يجنبه أي تدرج من التدرجات المعتادة التي بسطها تقدم التنوير تبسيطاً فريداً منذ

أجدادنا القوطيين، والتي لا تزال قائمة إلى الآن ثمانية أيام فانية عندما يرغب الإله الذي نعبده في أن يمر بامرأة ذات مبادئ عظيمة ومشاعر عظيمة.

وعلاوة على ذلك فإن فارس دي فيرسك، منافس ألسندور المكروه في أناقة فتوته وحسن ذوقه وحسن تجهيزاته وثروة ساعاته وصناديق السعوط وعددها، كانت مدام إليانت قبله بل قيل إنها كانت الأولى. وكان هذا هو الذي حدا بألسندور إلى أن يرغب في الارتباط بإليانت، وأن يوليها أقصى عنايته .

وعلى الرغم من أن إليانت كانت تستقبله دائماً استقبالاً طيباً إلى حد ما، إلا أن شعلته لم تكد تبدو وكأنها ستتوج في وقت قريب، حتى أعطته الكونتيسة الشابة أملاً إيجابياً، إذا جاز التعبير، فيما يتعلق بالكونتيسة فانفرلوش.

امرأة جميلة مقابل كلب جميل! في البداية، بدا ذلك لدوق ألسندور صفقة جيدة جداً. لم يكن هناك شيء يبدو أسهل من الحصول على فانفرلوش، ولكن في النهاية لم يكن هناك شيء أسهل من ذلك. إن التفاح الذهبي في حديقة هسبريدس الذي تحرسه التنانين لم يكن شيئاً في مقابل هذا الثمن، فقد كان من الممكن الحصول على ربعه بأقل عناء مما كان يتطلبه قطف حريرة واحدة من صوف فانفرلوش الثمين، فكيف يمكن للمرء أن يتقرب منها؟ أن يطلبها من الماركيزة؟ كانت تفضل أن تتخلى عن الأحمر وتتخلى عن مأساتها أو

سرقته؟ كانت تحمله في كمها دائماً ولم يدر الدوق المسكين ماذا يفعل، وكانت حيرته في أوجها: (آه، يا إلهي، عش يا عزيزنا النجس! لا يوجد شيء في العالم مثل الأوبرا لراحة التنهدات. إن هؤلاء السيدات من ذوات الفطرة السليمة ولا يستسلمن للأذواق الغريبة؛ إنهن يردن شيئاً صلباً و إيجابياً. بالألماس أو الأواني الفخارية المسطحة أو عربة أو غير ذلك من البؤس من هذا النوع، فهن متعادلات. أتساءل ما هي الفكرة من الرغبة في الحصول على كلب الماركيز؟ إنني مستعد أن أعطيها بكل سرور في مقابل معروفها الثمين مجموعة كاملة من الكلاب الصغيرة بجمال فانفرلوش؛ ولكن لا، هذا هو الذي تريده. إنني لست مغرماً كثيراً بإليانت هذه، فهي ليست جميلة في عينيها وأسنانها فقط، وهي نحيفة وسحرها يكمن أكثر في أخلاقها ومظهرها. وأنا من ناحيتي أفضل روزين وديزوبري؛ ولكني مدين لسمعتي بأن أحظى بإليانت وأعرضها، لأني متهم بالانغماس في الحب أكثر من اللازم، وبعض أصدقائي الحساد وعلى رأسهم فيرسك يشيعون أني لا أملك الاستمرارية اللازمة لتحقيق انتصارات ذات ثبات. لذلك يجب أن أحصل على إليانت على سبيل الاستعجال، ولكن من أجل ذلك أحتاج إلى فانفرلوش .

شيطان، شيطان! شيطان! يا له من خيال أن أجعل من دوق ونظيره لص كلاب!

-فاعترض جروفليه في خجل: (إذا كان السيد يتحرك هكذا) وأضاف سيميلور وهو يقرص أذن القرد: (إن كان السيد يتحرك هكذا) (جروفليه يا خادمي وأنت يا سيميلور يا زنجي المفضل، يجب أن أعترف بأنك تصفف شعر الدوق في أعظم إحراج.

-ما الأمر يا سيد الدوق؟ قال جيروفليه وهو يلف الضفيرة الأخيرة؛ ما الذي يمكن أن يحرج رجلاً مثلك؛ إنكم تظنون أيها الأوغاد أن الدوق والندّ فوق البشر؛ هذا صحيح تماماً، ولكن هذا لا يمنعني من أن أجهل ما أفعل في الموقف الصعب الذي أجد نفسي فيه. يا جيروفليه، يا سيميلور، أنت ترى سيدك الحبيب في حيرة غريبة.

- لو تكرم مولاي فصارحني... قالها جروفليه، واضعاً يده على قلبه

-فقاطعه سيميلور الذي كان يائساً من الدخول في الثقة ليشاركني في المنافع التي ستعود عليه حتماً

-وأصارحني... تابع جروفليه، فقاطعه سيميلور. ولما كان سيميلور يعتقد أنه قد أثبت دوره في هذه الثقة، وكان يعلم أنه لم يكن خطيباً بارعاً مثل جيروفليه، تركه يكمل جملته بهدوء: (يمكنني أن أكون مفيداً له وأقترح عليه بعض الأفكار. وأغتنم هذه الفرصة لأحتج على إخلاصي للسيد الدوق،

وأعده بأنه لو اضطر جيروفليه المخلص إلى أن يعرض حياته للخطر في سبيل إرضائه لما تردد لحظة واحدة.

- وأضاف سيميلور الصامت في صمت، وهو الحريص على ترسيخ الثنائية، والذي كان قلقاً للغاية من تكرار جيروفليه لـ (أنا).

-حسناً، حسناً، حسناً، يا أطفالي أنتم تثيرون أعصابي، لا تستمروا هذا كل ما في الأمر: عليكم أن تسرقوا فانفرلوش، كلب الماركيز. خمسون لوي لك، إن حصلت عليه هذا الأسبوع، وخمسة وعشرون لوي إن لم تحصل عليه قبل أسبوعين" شحب وجه جيروفليه من السرور، وقام سيميلور بحركة عجلة، لأن سرقة كلب بدت لهذين الوغدين المتعصبين صبيانية محضة. حتى سيميلور الذي كان واعياً قال لسيده: (يا سيدي الدوق، إذا شئت، سنسرق شيئاً آخر فوق ذلك.

- آه، هذا هو، أيها الوغدان، اسرقا الكلب فقط، و إلا ضربتكم ضرباً مبرحاً) وأضاف الدوق في شيء من التأمل الأبوي: (سيميلور، إنك متعصب جداً) " لقد حرص جيروفليه، الذي كان رجلاً حصيفاً إلى أبعد الحدود، على أن يجعل الدوق يدفع له نصف المبلغ، قائلاً إن المال هو عصب الحرب، و إنك تحتاج إليه حتى في السرقة. ولم يكن الدوق الذي لم تكن ثقته في استقامة

جيروفليه عظيمة، فأصم أذنيه في البداية، ولكنه قرر أخيراً أن يعطي الخمسة والعشرين ليرة. ولكي يواسيه جيروفليه، كتب مذكرة مفصلة مثيرة للإعجاب، ويبدو أنه كان عليه أن يضع بعض المال في جيبه. مذكرة جيروفليه عشرة لويز لشراء جلاية من الحمام للآنسة بوفو، خادمة المركيزة ومربية الكلب الصغير فانفرلوش، لكي تستميلها نحو جيروفليه وتسهل عليه دخوله إلى المنزل.

وعشرة لويزات لجعل السنجاب يشرب ويكتسب ثقته، حتى لا يعارض خروج فانفرلوش الذي أخذه جيروفليه. ولويز واحد مقابل الجيمبلات والكروكينول والكراميل واللوز والبرالين وغيرها من الحلويات، التي يقصد بها إغراء و إفساد استقامة البيشون.

مضافاً إليها أربعة لويزات مقابل كلبة كارلين التي ستكون عوناً كبيراً لجيروفليه في خططه للإغواء، ولم يكن الخادم الرقيق يحسب وقته وجهده الروحي والجسدي على هذا المبلغ الوجيز، وما فعله به كان بدافع المودة الخالصة للسيد الدوق الذي كان يسره أن يخاطر من أجله بالمخاطر في سبيله. وبعد أن اقتسم سيميلور وجيروفليه الخمسة والعشرين لويز بينهما، انطلقا في حملتهما بحماسة لا تصدق حتى أنهما عند أول ناصية شارع شعرا

بتغير هائل اضطرهما إلى دخول ملهى ليشربا زجاجة أو اثنتين. ولكن عطشهم لم يرو ظمأهم، فاضطروا إلى إحضار زجاجتين أخريين، وهكذا حتى اليوم التالي، حتى أن أرجلهم كانت متذبذبة بعض الشيء عندما غادروا هذا المكان من المسرات، ولم يمنعهم ذلك من التوقف مرة أخرى في ملهى جديد على بعد عشرين خطوة، حتى استنفدوا أموال. ثم ذهبا بعد ذلك إلى بونت نوف ليشتريا كلباً من نوع (بيشون) على غرار (فانفرلوش) وكلفهما ذلك أربعة وعشرين سو، ثم ذهبا به منتصرين إلى الدوق ألسندور.

9. فانفريلوش الكاذب

لم يكن من الممكن أن يكون فانفرلوش الكاذب ألسيندور أكثر سروراً بالسرعة التي تصرف بها سيميلور وجيروفليه؛ ولذلك فقد امتلك هذا الفرس الثمين الذي لفت أنظار كثير من النساء الجميلات، هذا الفانفرلوش الفاتن الذي جعل نجم أبي دي في شاحباً. هذا الحيوان الرقيق والفضولي الذي كانت الماركيزة تفخر به أكثر من فريق خيولها من خيول الحليب، ومن صيادها الذي يبلغ طوله ستة أقدام ونصف القدم وفارسها الجيب، والذي كانت تحبه أكثر من عشاقها وزوجها وأولادها، وأكثر من الويست والريسي. كم كانت إليانت سعيدة وهي تستقبل الكلب الصغير العزيز في كوربيل المبطن بالحرير والمزين بالوردي المفضل! يا لها من التفاتات خافتة، ويا لها من نظرات قاتلة، ويا لها من ابتسامات صغيرة بديعة كانت ستطلق على ألسندور السعيد، حتى اللحظة التي لا شك أنها قريبة جداً عندما تدق ساعة الراعي التي تنتظر بفارغ الصبر! "قال ألسندور في نفسه وهو يحطم مفاصل أصابعه في ابتهاج: (إن فيرسك سيموت من الغيظ، لأنه على الرغم من مظاهره

المنفصلة عن الواقعة، فإنني أشك بقوة في أنه لا يزال مغرماً بالكونتيسة إليانت، وأنه يدبر معها مكيدة خفية).

ولكي لا يضيع الدوق، ولكي لا يضيع أي وقت، عزم الدوق على أن يأخذ فانفرلوش المفترض إلى الحسناء الشابة في ذلك المساء بالذات، والتي كان بعيداً كل البعد عن الشك في هويتها؛ وكانت نظرات سيميلور وجيروفليه البريئة تبدد أي فكرة عن الاحتيال؛ وكان ألسندور على بعد مائة فرسخ من أن يفترض أن هذا الكلب الذي أعطى من أجله خمسة وعشرين لويزاً لا يكلف في الواقع سوى أربعة وعشرين سو. وكان التشابه كاملاً: أرجل ملتوية، وأنف أفطس، وعلامات فوق العينين، وذيل بوقي؛ وقطرتان من الماء، وبيضتان لا تتشابهان.

ولحسن الحظ أن ألسيندور لم يفكر مرة في أن يجعل شبيه فانفرلوش يكرر الرقصة، فقد كان جرو بونت نوف، الذي لم يكن يعرف آداب العالم تماماً، قد فضح نفسه من خلال حماقته وقلة خبرته في خطواته.

وأراد ألسندور أن ينافس فانفرلوش في التأنق والتألق؛ وكانت بدلته من قماش ذهبي مبطنة بقماش فضي، وأزرار من الماس مرتبة بحيث يشكل كل زر منها حرفاً من اسمه، وكان له جبة من خياطة البندقية تساوي ألف

إيكوس، وقد رش عليها بنبل بضع حبات من التبغ الإسباني، وقد انتشرت على صدره في جلال من خلال فتحة سترة من المخمل الذهبي؛ وكانت ساقه المسجونة في جورب حريري أبيض ذي زاوية ذهبية تبرز استدارة الساق الأنيقة وبراعة الكاحلين الأرستقراطية. وكان الحذاء ذو الكعب الأحمر يضغط على القدم التي كانت صغيرة جداً بطبيعة الحال؛ وكان سيفه الهزيل من عظم الحوت بغمده المخملي الأبيض وحارسه من اللمعان الذي كان رأسه إلى أعلى ومقبضه إلى أسفل، يرفع حزام بدلته بفخر. أما سرواله فيؤسفني أن أقول إنني لم أستطع أن أتأكد بأي قدر من اليقين من أي مادة صنع منها؛ غير أن هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأنها كانت مصنوعة من المخمل الرمادي اللؤلؤي؛ غير أنني لا أريد أن أدلي بأي تصريح.

ولما انتهى جيروفليه من استعمال سكين من العاج لإزالة المسحوق عن جبين الدوق، شعر بفخر لا يوصف لرؤية سيده في غاية الأناقة وحسن التسريح، فهرع ليحضر مرآة وضعها أمام الدوق. "قال الدوق: (سيدي، أنا راض عن نفسي؛ إنك تبدو في أبهى حلة، ولا أعتقد أنه سيقابل الكثير من النساء القاسيات هذا المساء.

- لو كان وجهه مصبوغاً بالسواد لكان أكثر وسامة، ولكنه جميل هكذا) وأضاف سيميلور وهو حريص دائماً على أن يحافظ على نفسه ولا يسمح لها بأن يتفوق عليه في التملق جروفليه الداهية (سيميلور، استدع مارميلاد(ظهر مارميلاد، وكان زنجياً طويلاً. "قم بتسخير العربة.

ولما تهيأت العربة نزل الدوق منها وهو يدندن لحناً صغيراً؛ وكان يرتدي الفانفرلوش المزيف حول عنقه في طوق صغير في غاية الأمان. وكان طاقم الدوق على أحسن ما يكون من الذوق ومطابقاً لأحدث صيحات الموضة: حوذي ضخم متبرعم مخمور بغطاء رأس طائر ملكي وفانوس ضخم وقفازات بيضاء ودليل أبيض وياقة فراء وحشية؛ وخدم ذو مظهر غير مهذب يحمل مشاعل من الشمع، اثنان في الأمام وثلاثة في الخلف، وكل ذلك وفقاً لأدق القواعد .

وكانت العربة منقوشة ومذهبة، وعلى ألواحها شعار الدوق منقوشاً ومذهباً، وكانت ذات روعة ملكية حقيقية. كان ألسندور مسروراً بنفسه وممتلئاً بالتوقعات المغرية، وطلب من الحوذي أن يلمس خيوله وينطلق بأقصى سرعة. وكان الحوذي الذي لم يكن يريد شيئاً أفضل من أن يحرق الرصيف، والذي لم يكن ليتخلى عن قمة الطريق لأحد، والذي كان ليقطع عربة أمير

من أمراء الدم وهو منتفخ بكرامة مكانه، أطلق دوابه الأربعة بأقصى سرعة، على الرغم من صراخ العوام وغيرهم من المارة البائسين الذين غمرهم بخبث بطوفان من الوحل. وفي غضون دقائق قليلة كانوا عند باب فندق إليانت.

وصعد الدوق إلى الطابق العلوي وأعلن: (السيد فانفريلوسيو والدوق ألسندور). وعلى الرغم من أن إليانت لم تكن ظاهرة للعيان، لأنها كانت ترتدي ملابسها للذهاب إلى الأوبرا، إلا أن الاسم السحري فانفرلوتشيو، على غرار سمسم المفتوح في الحكايات العربية، جعل الأبواب تدور على مفصلاتها، وسقطت كل التعليمات.

ولما رأت إليانت فانفرلوتشيه المزيف جالساً على ظهر ألسندور في الحبل المعلق حول عنقه رافعاً كمامته بتعبير قلق، أطلقت صرخة عالية النبرة وصفقت بيديها في سرور ثم ركضت إلى الدوق وقالت: (يا لك من ساحر يا ألسندور. " لم يفاجأ ألسندور بأي حال من الأحوال بتفضيل الكونتيسة للكلب البيشون وانتظر دوره بصبر. ونسيت أن أذكر أن إليانت قد نهضت فجأة حتى أن ثوبها الباتيست قد اضطرب في ثيابها، فسر ألسندور أن يدرك أنه قد استسلم لمزاجه السيئ، وأن إليانت لم يكن لها من الجمال إلا أسنانها

وعيناها. قال الدوق ألسندور في لطف: (سيدتي)، (أنا لست شيطاناً، ولست زوجك، أنا ببساطة رجل يعشقك .

ها هو ذا فانفرلوش؛ وتذكرين ما قلته أنت، فقد قبلت إليانت الدوق ألسيندور قبلة صريحة مخلصة؛ ولكنك تعلمين أن كل إنسان كريم لا يريد أن يحتفظ بالهدية التي يقدمها له من قبل النساء الجميلات. ولذلك أعاد ألسيندور، الذي لم يكن بخيلاً، قبلته إلى إليانت بعد أن نقحها ووسعها إلى حد كبير. ولحسن الحظ، دخل فانشونيتي في اللحظة المناسبة: (تلطفي بالوقوف قليلاً خلف هذا الساتر؛ وبمجرد أن يضعوا لي مشداً سأناديكِ، تعال يا سيدي فقد تم الأمر) قال فانشونيتي: (لقد تم الأمر) فخرج ألسندور من وراء الساتر.

وكان شعر إليانت قد صففته كله بعين من البودرة، وكشكشتين على كل جانب من جوانب الياقة، وقنفذ على قمة الرأس، وسبع نقاط محددة جيداً، وتجعيدات ثلجية كانت قريبة من وجهها النضر بشكل مثير للإعجاب. وقد أعطاها الريش الأبيض الذي كان يكسو وجهها مظهراً خادعاً مؤذياً. باختصار، كانت جميلة المظهر للغاية.

كانت ترتدي فستانها؛ وكان فستانها عبارة عن سلة بعرض ثمانية أذرع. وكانت تنورتها مرفوعة بأقواس وفراشات من الماس؛ وكان ثوبها من القش

الوردي المائل إلى الوردي، وهو أنعم ظلاله، يطفو حول خصرها الدبور بطيات غنية وفيرة؛ وكان مشدها نصف مغلق بسلم من الشرائط يعطي لمحة من الجمال تليق بالأمراء والآلهة، وكانت إليانت تعرف جيداً أن العنق يصرف النظر عن الياقة، وأن الجميع سيصرخون (قتل) لأدنى سرقة من العينين؛ أما الزينة فقد كانت وردة واحدة صغيرة من البومبون الطبيعي تتفتح عند مدخل هذه الجنة البيضاء. وانحنى الدوق ألسيندور باحترام؛ وأخذت إليانت فانفرلوش سوسي في خمارها، وغادرا إلى الأوبرا.

كان هناك عرض باليه لمصمم رقصات عصري؛ وكانت القاعة ممتلئة عن آخرها، وكانت كل المقاعد محجوزة من صناديق القيثارة إلى قبعات الأسقف. وقد برع مصمم الرقصات هذا قبل كل شيء في نقل الشعور بالحب من خلال سلسلة من الوضعيات ذات التصميم الشهواني تماماً، دون أن يسيء إلى الحشمة أبداً. وقد تم التعبير عن حيوية هذا الشعور الجارف الذي يقهر الآلهة والبشر في خطوات نارية وأوضاع عاطفية مأخوذة من الطبيعة .

أما الراقصة الرشيقة باتيل والراقصة المتألقة إيفروسين فقد صفق لها الجمهور كما تستحق، أي بصخب؛ ومهما أشاد الخبراء القدامى من الفرقة الموسيقية بالرشاقة النبيلة والوضعيات المهيبة للراقصة التي كانت تتولى

من قبل دور البطولة فقد كانوا ينعتونها بالسخافة ولم يكن أحد يريد أن يستمع إليها.

وكان ألسندور منهمكاً في غزوه لا يعير اهتماماً يذكر لما يجري على المسرح؛ أما إليانت فقد أسكرته فرحة امتلاكه لفانفرلوش، وفكرة يأس الماركيزة من حرمانها من حبيبها بيشون؛ على أن الزينة كانت في غاية الجمال وكانت تستحق أن تكون موضع اهتمام المشاهدين.

فقد كان هناك مغارة إله الأمواج، وفيها مغارة إله الأمواج، وفيها المردان والمرجان والأصداف وصدف اللؤلؤ المقلد في كماله وأبهى تألقه؛ وقصر مسحور يفوق كل ما في القصص الخيالية من البذخ والروعة؛ ونوازل ذات أمجاد وآلات منفذة بإعجاب .

ولكن ألسندور كان يعتني بإليانت، وكانت إليانت تعتني بفانفرلوش، وكذلك اعتنت قليلاً بألسندور الذي كان مظهره وملابسه الثرية قد أذهلاها ولا سيما في المساء.

أما فانفرلوش المزيف فبدا في حالة يرثى لها؛ ولم يكن معتاداً على مثل هذه الصحبة الطيبة، وكان ينظر إلى كل شيء بعينين خائفتين وهو يضع كفيه على مقدمة غرفة الملابس. وفجأة، يا له من تحول غير متوقع في الأحداث،

انفتح باب غرفة الملابس بضجة. فإذا بسيدة متلألئة بالجواهر، قصيرة القامة، ترتدي ثياباً حمراء كالأميرات، في ثوب جميل بالٍ متأنق، وقد أخذت مكانها مع اثنين أو ثلاثة من اللوردات الصغار: إنها الماركيزة. وأخرج كلب صغير رأسه من خماره، ووضع كفوفه على مقدمة الصندوق في وقاحة تليق بدوق ونظير؛ إنه فانفرلوش، فانفرلوش الحقيقي، الفذ الوحيد الذي لا يضاهيه أحد، ولمحته إليانت يا لانقلاب القدر! فنظرت إلى الدوق المذهول نظرة صاعقة؛ ثم أغمي عليها بعد أن خنقها الانفعال وأغمي عليها إغماءة تامة. ولم تستطع الأملاح الإنجليزية، ولا ماء الكرملية، ولا ماء ملكة المجر، ولا قطرات الجنرال لاموث، ولا الريشة التي أحرقت ومررت تحت أنفها، أن تخرجها من نوبة الإغماء هذه، ولولا التهديد برمي الماء في وجهها لأعادها إلى الحياة فجأة، لظننا أنها ماتت حقاً .

ألسندور لا عزاء لها.

ولكن يقال إنه تلقى بعد أيام قليلة رسالة صغيرة من إليانت جاء فيها: (عزيزي الدوق، لقد ظننت أنك خدعتني عمداً؛ وقد علمت بعد ذلك أنك أنت نفسك كنت مغروراً بسيميلور وجيروفلوش. إن الفرس الذي أهديتني إياه لا ينقصه شيء من التصرفات ولا ينقصه إلا أن يهذب نفسه ليطغى على فانفرلوش؛

إنك ترقص كالملاك، فهل تكون سيده في الرقص؟ الوداع يا ألسيندور. وبعد شهرين، كان البيشون بيستاش، الأصغر سناً والأكثر ليونة ورشاقة، قد محا مجد البيشون فانفرلوش تماماً، وكان ألسيندور قد وجه ضربة قوية بسيفه إلى فارس فيرسك الذي لم يكن يريد أن يسير أحد على خطاه. ولم يتعافى فيرسك من هذا الفشل، وأصبح ألسندور بلا ريب الرجل المألوف. وليعذر القارئ الجاد الكئيب هذا التحريف الثمين لشخص ربما يتذكر كثيراً أنه قرأ أنغولا وجريلوت، ولم يكن له من ذريعة سوى إعطاء فكرة عن أسلوب وطريقة سقطت تماماً في غياهب النسيان.

ملحق

كتب تيوفيل غوتييه (1811-1872)، وهو مؤلف روايات من بينها "لو كابيتان فراكاس" و"الآنسة دي موبان"، العديد من القصص القصيرة. ظهر هذا النص الصغير الغريب في كتابه Les Jeunes-France, romans goguenards suivi de Contes humoristiques Paris, G. Charpentier, Éditeur, 1880.

عن البدانة في الأدب

هل يجب أن يكون الرجل العبقري بديناً أو نحيلاً؟ هذا سؤال صعب الحل، فقد كانت تراودني في صغري (ولا ينبغي الخلط بينه وبين رواية المرحوم بيبليوفيل) ومنذ زمن ليس بالبعيد أغرب الأفكار عن الرجل العبقري، وهكذا كنت أتصوره.

بشرة برتقالية أو ليمونية، وشعر كأنه لهب إناء نار، وحاجبان متكافئان، وعينان زائدتان، وفم منفوخ بازدراء في سمنة بايرونيّة، وملابس غامضة وسوداء، ويد تمر بلا مبالاة من خلال الفجوة في البدلة.

والحق أنه لم تكن لدي فكرة أخرى عن رجل عبقري ولم أكن لأقبل شاعراً يزن أكثر من تسعة وتسعين رطلاً؛ وكان القنطار من الوزن كان بغيضاً جداً بالنسبة لي: ومن السهل أن تفهم من كل هذه التفاصيل أنني كنت رومانسياً كامل الدم.

وكانت دراساتي في علم الحيوان لا تزال غير مكتملة تماماً؛ فلم أكن قد رأيت وحيد القرن ولا عجل البحر ولا التابير ولا إنسان الغاب، ولا رجل عبقري، ولم أكن أتوقع أن أقتصر بعد على مصاحبة العباقرة دون غيرهم؛ وكنت حينئذ مقتنعاً اقتناعاً عميقاً بأن العبقري يجب أن يكون نحيفاً كالسمك المملح كما يقول المثل: (النصل يبلي الغمد، والخط من الشرقيين: روحه قد كسرت جسده). ومنذ ذلك الحين، عندما واجهت نظريتي بالواقع، أدركت أنني كنت مخطئاً خطأً فاحشاً، كما يحدث دائماً، وتوصلت إلى صياغة هذه البديهية المناقضة تماماً لنظريتي الأولى، وهي الرجل العبقري يجب أن يكون بديناً.

أجل، إن رجل العبقرية في القرن التاسع عشر قد أصبح بديناً كما هو طويل القامة: لقد اختفى جنس الأديب النحيف، وأصبح نادراً كندرة جنس كلاب الملك شارل الصغيرة، ولم يعد الكاتب أجرب، ولم يعد الشعراء يعجنون طين المدينة بأحذية بلا نعال، ولم يعودوا يتناولون الغداء والعشاء على الأقل يومين متباعدين، ولم يعودوا مثل سكوديري يأكلون خبزهم بقطعة من لحم الخنزير المقدد الفاسد، مسروقة من مصيدة فئران، في زقاق مهجور من أزقة لوكسمبورج، لم يعد رجال العبقرية يتناولون طعامهم كما كانوا يفعلون من قبل على دخان الدخان من الدوارة؛ إنهم يتناولون طعامهم من موائد وصحون خاصة بهم، كما يتناولها من يحضرونها. فيا له من تقدم خرافي، ويا له من قدر غير مأمول؛ فلما خرج الشعر من هذا الصوم الطويل، وقد أذهله السرور والسرور أن يجد ما يأكله، بدأ فكاكه يعمل بشجاعة حتى نبتت له في وقت قصير جداً كرش.

" لم تعد هذه كاليوبي، الطويلة النقية التي تعزف على كمانها في مفترق الطرق، بل هي امرأة روبنز تغني بعد أن تشرب في مأدبة طعام، امرأة فلمنكية مرحة ذات ابتسامة ملأى بالحمرة والبهجة، والتي يصعب على كل أجنحة

الملائكة التي رسمها يوهانوت على رأس مجموعات الشعر أن تنزعها من السماء، فلننتقل إلى الأمثلة:

أما السيد فيكتور هوجو الذي يجب أن يكون، بوصفه أمير الشعر الرومانسي، أكثر خضرة من غيره وأن يكون شعره أسود، فإن بشرته ملونة وشعره أشقر. ودون أن نتفق مع السيد نيسار لو ديفيسيل الذي يجد في الجزء الأسفل من وجه الشاعر طابعاً حيوانياً متطوراً جداً، يجب أن نقول إنه لا يملك خدوداً مجوفة بشكل صحيح، و إنه يبدو في غاية الحسن، - مثل نابليون الذي أصبح إمبراطوراً.

إن العالم ومعطف الفستان الذي يرتديه السيد هوجو لا يستطيع أن يحتوي مجده وبطنه: ففي كل يوم ينفصل زر من أزراره، وتتشقق عروة من عرواته؛ ولم يعد يتسع له ثوبه الذي يرتديه من أوراق الخريف، أما أخصب روائيينا وهو السيد دي بلزاك فهو أكثر من أن يكون رجلاً .

يستطيع ثلاثة أشخاص، بتكاتف أيديهم، في أن يتمكنوا من تقبيله، ويستغرق الأمر ساعة كاملة؛ وهو مضطر إلى أن يطوق كطن، خشية أن ينفجر في جلده.

أما روسيني فهو من أفظع الأحجام، وقد مضى على آخر مرة رأى فيها قدميه ست سنوات؛ ومحيطه ثلاثة أصابع، ولولا أنك تعلم أنه أنطونيو جواكيمو روسيني إله الموسيقى لحسبته فرس نهر في سروال قصير.

وجانين، النسر والفراشة في مجلة (جورنال دي ديبات)، ينهار كل ما يتوهم أنه سفسطة القرن الثامن عشر التي يتوهم الجلوس عليها؛ وذقنه وخدوده تفيض من كل جانب وتذهب فوق سوالفه؛ والرداء ومعطف الفستان الكبيران جداً من خرافاته؛ وعلى قدر ما هو عليه من الظرف، لا يجرؤ المرء على القول بأنه يتمتع بذكاء أكثر مما يتمتع به من السمنة.

والفن اليوم في خير حال، وكذلك السيد ألكسندر دوماس؛ ولا تمنع إفريقية عواطفه من أن يكون مؤلف أنطوني ممتلئ الجسم؛ وحجمه كرائد الطبل هو السبب في أنه لا يبدو سميناً كخصومه في العبقرية، ومع ذلك فهو يزن مثلهم. وللبلاش دائماً ثلاثة أماكن في جميع العربات العامة؛ فإذا أرادوا أن يختبروا صلابة جسر جديد وضعوا عليه هذا المبدع الشهير. وهو يحطم كل أرضيات المسارح، ولا يستطيع أن يعزف إلا على أرضيات خشبية أو بناء صلب؛ ووزنه وزن فيل كامل النمو.

فريديريك ليمايتر هو بالضبط في حجم بنطلون روبير ماكير الأحمر، ولا يبدو أن ما عاناه من سوء المعاملة على أيدي رجال الدرك قد جعله يفقد الكثير من وزنه. بل على العكس من ذلك فإن بايرون لو لم يمت في الوقت المناسب لكان اليوم بديناً جداً؛ ونحن نعلم ما كان يبذله من جهد لتجنب السمنة التي أتت عليه كما أتت على عاشق الجمباز، لأن بايرون لم يكن يتصور من الشعراء النحيفين والمتأملين النحيفين إلا أن يمص كل أسبوعين مرزباناً: كان يشرب الخل ويأكل ليمونة وهو الشاعر العظيم الساذج والسيد العظيم الذي كان.

أما السيد سانت بوف فقد بدأ يرى تحت شعر الماعز الغامض الذي يكسو صدره من شعر الماعز أكثر بطنه استدارة و إشباعاً .

يا جوزيف ديلورم جوف الوادي، ماذا أصبحت؟ - إن مستر سانت بوف سمين وهادئ ورجل دين يعد بالكثير، أما أوجين سو الذي يشارك بايرون في أفكاره فيأسف أن يرى عبقريته تنزل في بطنه، كما أن هذه البدانة ليست مسروقة، لأن هؤلاء السادة نهمون نهماً عجيباً: يجب أن ترى كل هؤلاء الشعراء الغنائيين في وقت الطعام. ويضع السيد هوجو في صحنه خليطاً رائعاً من خلطات رائعة من الشرائح والفاصوليا بالزيت ولحم البقر بصلصة الطماطم

والعجة ولحم الخنزير والقهوة بالحليب مع قليل من الخل وقليل من الخردل والجبن الأبيض، فيبتلعها دون تمييز بسرعة كبيرة وطويلة جداً. كما أنه يلتهم كميات كبيرة من طبق من المأكول البارد لمدة ساعتين في المرة الواحدة. - ويطلب ألكسندر دوماس بانتظام ثلاث شرائح لحم بقري لشخص واحد، ويتبع هذه النسبة في كل شيء آخر. أما السيد تيوفيل غوتييه، فسوف يكرر بعد قليل ما قام به ميلون الكروتوني من أكل ثور في يوم واحد (باستثناء القرون والحوافر بالطبع): فما يأكله هذا الشاعر الرثائي الشاب من المعكرونة في اليوم يسبب عسر الهضم لعشرة من اللازاريين؛ وما يشربه من الجعة يسكر عشرة من الفلمنكيين من الفلاندرز. ويتناول السيد ساندیو الطعام بشغف، وروح روسيني دائماً في المطبخ أو حوله. وتظهر نحاسية فرقته الموسيقية انشغالاً معيناً بالقدور التي لا تفارق المايسترو العظيم في أكثر إلهاماته رفعة.

إن عظماءنا العظماء أقوياء بما فيه الكفاية لمصارعة الإلهام، وأفكارهم حادة كالدمشقية التركية؛ ولهم غمد مبطن بحيث لا يبلى طويلاً؛ ومع ذلك فمع أن السمنة هي السائدة اليوم، يجب أن نعترف بأن هناك بعض العباقرة الهزيلين البالغ عددهم: السيد دي لامارتين، والسيد ألفريد دي موسيه، والسيد ألفريد

دي فيني، والسيد أرسين هوسايي وقليل غيرهم. ؛ ولكن يجب أن نلاحظ أن كل هؤلاء العباقرة الذين تخترق عظامهم الجلد، هم من الحالمين بمدرسة هيلواز الجديدة أو فيرثر الصغير، وهي مدرسة ليست كبيرة جداً ولا تساعد كثيراً على نمو مناطق البطن.

تم بحمد الله.